

أنشودة الموت



دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 010003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

أنشودة الموت

رمضان سلمي برقي

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف : عمار جمال العبد

تصميم فني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : ٢٠١٩ / ٢٢٢٢

I.S.B.N: 978-977-488-???-4

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونياً نسخاً أو تسجيلاً أو تخزيناً، دون إذن خطي من الدار

أنشودة الموت

قصص

رمضان سلمي برقي



إهداء...

إلى نبع الطيبة؛ أُمي الغالية، وأبي العزيز..
إلى جميع إخوتي وأخواتي، وجميع عائلتي وأصدقائي، وأساتذتي..
إلى كل من كانت لهم نصيحة، أو قرأت لهم كُتُباً ساعدتني
وأفادتني..

إلى مُلهمتي؛ قريتي العزيزة «عرب مطير» المنسيّة هناك في
"أسيوط"..

إلى الحياة؛ المُلمم الأعظم... إلى كل من سيقراً الكتاب..
إليكم جميعاً؛ أهدي مجموعتي القصصية الأولى ورقياً، بعد
خمسة كتب إلكترونيّة.
وما توفيقي إلا باللّهُ...

رمضان سلمى برقي

ماذا ستنجب حياة؛ ضاجعها الموت غفلة؟

رمضان سلمى برقى

أنشودة الموت

- يا لطيف... إنها قادمة!

يصيح فينا الدليل الذي يتقدّم قافلة المشاة؛ قافلة تحوي مئات من شيوخ وأطفال ونساء وقليل من الشباب. يمشون من حولي؛ حاملين فوق ظهورهم وأكتافهم أمتعتهم وأكفانهم، وحاضنين رضعهم وحاضنين أحلامهم؛ مكفهره الوجوه التي تشابهت تقاسيمها بتقاسيم ظلام الليل؛ ينظرون إلى السماء فلا يرون النجوم؛ لقد استُبدِلت بالنجوم رؤوس صواريخ الطائرات، والبراميل المتفجرة، واستُبدِل بهدوءهم أزيز الطائرات وقصف المدافع، وأزيز الرصاص.

كلما يعوي أزيز طائرات فوق رؤوسنا؛ يسود الهلع، وتعلوا الصرخات.

منذ لحظات؛ فُصفنا بصاروخ؛ أصاب مؤخرة القافلة البشرية فأمسى العشرات منّا رماداً في تعداد المحروقين؛ سُحِقوا فتحولوا إلى عدم؛ حتى لم يمهلوهم أن ينتشوا الموت!

- لا أريد الموت بسهولة؟

أَصْرُخُ بكل ما أوتيت من قوة؛ أَصْرُخُ وأنا أحملق إلى السماء؛ ومن حولي العويل، ومن حولي الأشلاء المتحمة، أنادي:

- أريد أن أنتشي الموت يا أولاد العاهرات؟

هل سيسمعونني؟ اختفت الطائرة التي أصابتنا وكأنها تتين أسطوري؛ نفث ناره وحلّق بعيداً!

الناس من حولي لا يفقهون ما أقول؛ بل لا يفقهون ما يحدث؛

هم مرتجفون، جاحظو العيون مزعورون؛ يهرولون بتخبط، يلهثون
ويدهسون أنفسهم خوفاً من التفحُّم.

تركْتُ الجميع يسبقني؛ يمر الجميع أمامي على ضوء القمر
الخافت؛ يهرولون بين أطلال المدن الخربة، والصحراء الوعرة،
والأسلاك الشائكة، وبتانة رفاة الموتى، وحقول الألغام. يهرولون
من الماض الخرب؛ إلى المستقبل المجهول، وأنا أتبعهم بتؤدة؛ أدعو
بالرحمة لمنْ تفحموا وألعن منْ أحرقوهم؛ صدري يعلو ويهبط، قلبي
يَنْفُضُ بصدري؛ أسمعُ أزيز طائرة تقترب؛ أَصْرُخُ:

- يارب!

أتمنى أن تكن هي ذاك التتين الأسطوري؛ أريد أن أتدثر بنفثة من
لهبه لأرحل!

أتوقَّف عن السير؛ أنظرُ لأعلى؛ الصوت يقترب أكثر فأكثر؛
دويُّ المدافع يأتي من بعيد، صدى الانفجارات يتردد من فينة لأخرى.
أَنْصِبُ منتظراً انتشاء سكرة الموت كانتشاء سكرة الخمر!
لحظات ويبعد ذاك الصوت الذي خلته طائرة؛ أمتعضُ، أفكر،
ثم أنطلق لاهثاً لألحق بالقافلة الضائعة بين الأطلال وأمواج الظلام،
الحقهم وأسبقهم؛ أتوقف، أستدير؛ أَصْرُخُ فيهم جميعاً:

- أنا أعرف طريق النجاة مما نحن فيه!

تتوقَّف القافلة؛ ينتشر الهمس بين الجميع؛ يصيحون:

- كيف سننجوا؟

- أين الطريق؟

- الحدود الأردنية؟

- الحدود التركية؟

-
- الأمم المتحدة؟
وأجيبهم بصوت جهور، أقول:
- بل السماء!
فيعودون لتساؤلاتهم، يصرخون:
- هل ستأت طوافات إنقاذ؟
- هل سيتوقف القصف؟
أَصْمُتُ برهة ثم أَصْرُخُ:
- سنبتهل؛ سننشد، سندعوا الله!
تنتشر الجلبة بينهم، أقول:
- أنشودة اللعنة والنجاة!
تسود البلبل؛ أَتَحْرَكُ بينهم، أَصْرُخُ فيهم:
- سنتعاون جميعاً بالأنشودة، وناجي الرب كي ينجنا من التيه!
يغمغم الجميع بالموافقة؛ ويبدأون بتساؤلاتهم من جديد، يقولون:
- أنا سني!
- أنا شيعي!
- أنا مسيحي!
- أنا علوي!
- أنا اسماعيلي!
- أنا دروزي!
- كيف سننشد؟
فأجيبهم؛ أقول:

- أمّنوا على ما سأُنشده؟

وأراهم يتأهبون بصدق أملًا في النجاة، فأبدأ بالابتهاال والدعاء والانشاد، أصرُخ:

- اللهم إنا ضعفاء محتاجون إلى قوتك، وتائبون محتاجون إلى هدايتك، اللهم نجنا بقدرتك... اللهم انزل لعنتك من السماء على كل مَنْ كانوا سببًا في تشريدنا، اللهم انزل لعنتك من السماء على كل مَنْ كانوا سببًا في تفحمننا، سواء أكانوا من داخل البلاد أو خارجها، بقوتك يا خالق السماوات والأرض؟

وما إن أصمتُ معلناً الانتهاء من الأنشودة؛ حتى يردد الجميع من حولي وأنا معهم، نقول:

- آمين؟

ونقف جميعاً شاخصوا الأبصار؛ تترقب أي إشارة من السماء توحى بنزول أي لعنة بالقرب منا، أو أي سبيل إلى النجاة. وفجأة؛ تظهر الإشارة، أصرُخ:

- الله أكبر! الله أكبر!

أنا الآن جد سعيد؛ أنها الإشارة، أجل؛ إنه شعاع ضوء أبيض جميل، يهبُّ من السماء في أُبهة ورونق، أنظرُ من حولي فأجد الجميع مبلسون من هول المفاجأة، يرددون بصوت محشرج:

- صاروخ!

بيد أنهم متسمرون لا يتحركون قيد أنملة؛ يصرخون ثانية:

- صاروخ قادم!

أي صاروخ يتحدثون عنه أولئك الجُهال؛ إنها الإشارة التي ستطمئن قلبي بأن اللعنة قادمة لتمزق أعدائنا! هاهي الإشارة تكبر كلما

اقتربت، وها أنذا أفتح ذراعاي، وأنظر إليها، أقول:
- سبحان الله! إن الإشارة الربانية المضيئة ستزل وسط القافلة
بالضبط!

أغمض عيناي؛ أشعر بحرارة تقترب، أَحْسُ بالسمااء قد سقطت
فوق رأسي كسفاً، أشعُرُ بالأرض تتزلزل تحت قدماي، تصرخ رُوحِي
بصوت مكتوم:
- لقد نجوتُ!



كائن لا يَحْتَمِلِ ثِقَلَهُ

- صابر... أريدك أن تُطَلِّقني؟!

لم أنتبه لطلبها أول الأمر، جالسًا وواضعًا حاسوبِي المحمول فوق فخذي الممددتين فوق السرير، مرتديًا منامتي، ومركِّزًا في الشاشة، ولفافة التبغ المُشتعلة بيدي تُغادرها موجات الدُخان الشبيِّية...

- أريد أن أُطلِّق يا صابر؟

انتبهت بكل مداركي: «ماذا؟» سألتها! تجلس هي على جانب السرير بقميص نومها الطويل؛ تُدير وجهها بعيداً عني: «كما سمعت!» قالت باقتضاب، فسألتها مُتلعثمًا: «لماذا ياريم؟» انتابتها لحظات صمت!

- لا أدري، ولكني مللتُ الحياة بهذا البيت؛ من داخلي ضَجْرَةٌ! لا أريد أن أكمل معك! كل ما بك يدفعني للهروب منك؛ ابتساماتك، قبلاتك، أحضانك، صوتك، حتى أنفاسك صارت تُزاحمني شهيقِي وزفيرِي؛ تخنقني! كنتُ أحبك قبل الزواج، وفي أوله، ولكن الآن وبعد مرور عامين، وإنجاب «حمادة»؛ أصبحتُ عاجزة عن زجر قلبي، عقلي، عن زجر كلي الذي يهفوا إلى الرحيل... طَلِّقني الآن؟
مُنصتًا لها غير قادر على تطويع مداركي لتصدِّق أن هناك سببًا لتغيُّرها هذا:

- اعطني سببًا واحدًا يحل لك الفراق؟

نَظَرْتُ في وجهي الذابل بوجل، ووجها أحمر كثمررة فراولة ناضجة، طَاطأت رأسها؛ هربت من نظراتي البلهة:

- لم أعد أحبك!

دعستُ ما تبقى من لفافة التبغ في المنفضة جواري وصمتُ، لكن وجهي ويديّ مارسوا كل علامات التعجب الرياضية.

مجنونة هي بالطبع، ولكن ربما كنت أتوقع طلب كهذا! قبل أن أخطبها؛ كنت أعرف أنها خُطبت أكثر من عشر مرّات ونيف، وجميعهن فشلن! علّتها أنذاك ذات علّة اليوم: لا تُحبهم، أو لم تعد تحبهم!

«ريم» فتاة دبلوم التجارة، الذي حصلت عليه في خمسة أعوام؛ عام دراسة، يعقبه عام ملل، ثم مواصلة الدراسة، انتظاراً لعام الملل القادم! وهكذا دواليك. حماي «أ: حسين» دار بها على عيادات الأطباء النفسيين، قالوا له: «سمات مزاجية متوارثة؛ يستحيل علاجها!» وحتى المُعالجين الروحانيين والمشايخ، حتى المُشعوذين؛ أن يجد علاجاً لم يجد! ولكن ماذنبى أنا، وما ذنب «حمادة» الصغير!

أمها أخبرتني بذلك، ونصحتني غير مرة؛ حماتي العمّة «رحاب» عكس الحموات جميعهن؛ قالت: «فتاتي رأسها صُلد صلاته قدر هشاشته؛ هوائية ملول، لا زمام لعقلها ولا لقلبها؛ تستطيع منه الامساك بتلابيب أي فكرة أو قرار أو أمنية أو حتى تفاهة! ستملّ منك يوماً ما، وستتججج بأيما سبب واه لا لتقنعك أنت، بل لتقنع نفسها بقرارها الفجائي!» ولكني كنتُ أبلهاً مُحب. لم أجد فيّ عزماً على تركها، وأصررتُ على الزواج بها، رغم الصعاب والعثرات التي تقابلني. تغضب بدون سبب، وأحفى كي أصالحها، تشطح في خصامها، لِمَا تر من ليونة نواياي...

«تقلّ؛ لا بد من ثقل في الأمر، ولا مانع من بعض الصفعات؟» نصحتني أمها في إحدى نوبات غضب ريم ثم ضحكت: «كثيراً ما نصحتُ أبيها بفعل ذلك ولكنه يرفض دوماً، فهي ابنتنا الوحيدة؛

لم يتجرأ يوماً على زجرها أو ضربها! «كنت في بيتهم؛ أحمل هديّة طلبتُها مني! رواية «ذاكرة الجسد». وأنا أبتاعها من متجر الكتب، لمحتُ رواية لِمَا تصفحتها وجدتها أمتع منها وأدسم: «ثلاثية غرناطة» فأبتعتها لها فغضبت! وأصررتُ على الرواية الأولى، فجلبتها ذلك اليوم، ولم ترضَ مقابلي؛ فتركتُ الكتاب لحماتي، وقبل أن أرحل؛ سألتها: «ولماذا لم تزجريها أنت؟» ضحكتُ العَمّة رحاب قائلة: «فعلت لكن أبوها نفذ النصيحة فيّ أنا!»

وتفصيلاً لنصيحة حماتي؛ جذبني ثقلاً لم أألفه من قبل إلى أعماقه، وسرعان ما ملّت من تجاهلي، واستقامت معي، وتزوجنا. مرّ على زواجنا أكثر من عام، وأنجبنا حمادة، وبعده انتشلتني الخفة بين أنيابها وطفّت! عادت بي حيثُ مزاجيتي التي يصعب تغييرها! خفة في تنفيذ كل أمنيات «أم حمادة» وطلباتها، وخوف شديد من أن تغضب أو تُعكّر مزاجيتها: أما الآن ففي الخفة الفراق، وفي الثقل المجهول! في ليلة عُرسنا؛ تجلّت بهيّة، حاملة، عاطفيّة. لم ترهقني كعادة الفتيات ليلة الدخول بهن؛ راحت تُداعبني كطفل صغير! وطوقتني بليونّة وكأني زجاج تخشى تحطّمه، ولمّا ازداد حنينها؛ حطمتني. ولكني بعد ثوان؛ اكتشفتُ أن شظايا زجاجي المُحطّم أسكرتها، ففرقتُ بين موجاتها مُحاولاً التعلق بأي نُهد للنجاة.

- أحبك يا صابر، لا أتخيّل أي كنه للحياة وأنت لست معي فيها؟ ابتساماتك تشعرنني بسذاجتي، قبلاتك تسكرني، أحضانك تبعد بي عن الدنيا وتحط بي في جنة أنا وأنت من نسكنها فقط، صوتك يداعب أوتار قلبي المدوّنة فأكن لحنك الذي لا ينتهي، حتى أنفاسك...

ثم صمتتُ تفكّر في كلمات تضعها محل النقاط. كلمات تكرّرت غير مرة بالروايات التي تقرأها، ولكنني كنتُ أملك إيماناً

ما بداخلي؛ يلعب دوراً يشبه دور الشهود في المحكمة؛ يقسم لي دوماً أنها صادقة؛ ريم امرأة المُتتاقِضات دائماً صادقة.
في لحظات صعبة كهذه؛ يُصبح الزمن ثقيلًا في الانسراب من وعينا...

- أردت أن تتزوجني فتزوجتك عامين؛ ألا يكفك عامين وأنت تُعَبُّ من ملذاتي؟ لا بد أن تطلقني، وتبحث عن امرأة غيري؛ امرأة تجيد الخضوع والطاعة للزمن، امرأة لا تملّ أبداً من خِفَتِكَ المملّة؟
أغلقتُ الحاسوب، تركته فوق السرير، هاماً بمغادرة غرفة النوم ثقيلة الزمن، كنتُ أريد أن أدخّن لُفافة تبغ بأيّ طريقة؛ أشعلتُ واحدة، وتركتها جالسة، وخرجتُ إلى الشُرْفة. وكما تقف أرواحنا على عتبة الخلود فنذكر مرور الزمن؛ وقفتُ على عتبة باب الشُرْفة لأدرك حجم ما أنا فيه من المشكّلات. من بين دوّامات أدخنة التبغ، ودوّامات أفكارِي؛ أرقب بغصّة في القلب احتراق سبع سنوات شقاء كي أبني هذا البيت! سبع سنوات؛ تعادلها دقيقة عند «ريم»! صدقتُ: هي لا تخضع للزمن!

- ماذا قررتُ؟

شق صوتها طريفاً بين أفكارِي، وبين أدخنة التبغ، ولكن الخِفة فعلت فعلتها:

- موافق. قتلها ثم استدرت بوجه طفل لم يألف التلّون في الوجوه بعد!

ظلّت مُنتصبية أمامي دقيقة، لا تُطرب الأذان بصوتها، وتحوّل وجهها إلى تلجي باهت.

- ولكن لي طلب...

اقتربتُ من صمتها، أخذتها من يدها، وتسللتُ بها بين أسلاك

الزمن الشائكة صوب غرفة النوم. وهي صامته صمتٌ لا يتوقف عن
الثرثرة. أقعدتها على السرير، ثم خلعت ثيابي:

- مرة أخيرة قبل الرحيل!

في البدء كانت الكلمة. جادت عيناها بدمعتين فقط؛ لم تجدا
يداً تهدهدهما! كانت مُستسلمة؛ فمزقتُ قميصها، وانزلتُ فوق
جسدها كقطرة مطر صيفية، داعبتُ مساماتها المُتفتحة، فسرعان
ما امتصتني. حامت فراشات الشوق على أغصاننا، فطردناها
بتأوهات ورهز لا يصدران سوى عن مراهقين يمارسان الجنس لأول
مرة!

عَرَقْنَا لم يكن برائحة المسك، وفي عُرينا لم نجد أشجاراً
نعصف من ورقها لنداري سوءاتنا، بل التحمنا كمادة الوجود الأولى
في انتظار لحظة التكوين؛ في انتظار الكلمة. واكتشفنا أن الوداع
كان دافعاً ومحضراً لكل جوارحنا. كانت تتحب في صمت؛ ربما
من اللذة أو من قدسية الوداع، أو من رهبة انتظار «كُن»، أو لسبب
أجهله! قضينا ساعتين حتى غفونا دون أن نشعر.

- صابر؟

تسلل صوتها لإدراكي رويداً رويداً؛ فتحتُ عيناً، ووجدتها
مُبتسمة، وجهها يشع نورا، فتحتُ عيني الثانية، وبعد ثوانٍ اكتشفتُ
أن ضوء الأباجورة هو ذاك من وقع في زاوية رؤيتي لها، ولكن وجهها
كان وضاءً بالفعل...

- سأجهز الغداء؛ قم وأفق هكذا يا حبيبي، واذهب إلى الولد

لأنه استيقظ!

قالت يا حبيبي! ثم تركتني لتفعل ما رامت فعله! لقد تغير رأيها!
ذلك اليوم؛ ظللتُ ألعب حمادة وأداعبه، حتى ينضج الغداء. أمّا طلب
ريم الطلاق فلم يتكرر بعدها إلا زهاء خمس أو ست مرات فقط. ولا

أدري هل سننجوا في المرّات القادمة أم لا!
حملتُ حمادة ذو العام الواحد فوق كفيّ، ورحتُ أدور به في
الغرفة، وهو يضحك عالياً، ولمّا تعبتُ أنزلته فوق سريرة ففتنّقت
عنه صرخات مُفزعته، فسارعتُ بحمله من جديد متوجّساً من خِفّته!
وَمُسْتَرْجِعاً كلام الطبيب لحماي: «سِمات مزاجية متوارثة؛ يستحيل
علاجها!»



موسم الخطيئة

أقلعت أسراب زراير من بين حقول الأذرة صوبه؛ بيد أن الشفق الأحمر الذي امتد سماطاً يحجب الشمس عن حقول الأذرة الطويلة؛ لم يكن قد فرش إلا مذ ما يقارب ربع الساعة.

رغم الإنهاك الذي يلقي بوباله على جسدها ذو القامة الطويلة المتييسة؛ لاتزل تتحمل على قدميها الحافيتين في خطوات متتدة صوب الدار، بجلبابها الأسود الفضايف، وخمارها الأسود المنسدل فوق رأسها؛ ومن فوق الخمار حاملة فوق رأسها زنبيلاً من سعف مشحون بسنبل الذرة الرفيعة، تمحو ذبول جلابها الأسود المضرجة بالطين -من ثقلها- آثار أقدامها فوق التراب.

حانت التفاتة من عينيها الواسعتين إلى السماء فسالت قطرات عرق من جبينها إلى أسفل، مارة ببشرتها الخمرية اللامعة بظلال الغروب.

عادت ببصرها إلى الطريق المنبطح أمامها تحفه الحقول الخضراء من الجانبين، ومجرى مياه بجانبها تناثرت على حافته بعض شجرات النبق المصفرة أوراها؛ يصاحب خرير مائه الطريق حتى ديار القرية؛ ديارها التي بدت لها من بعيد كشواهد قبور باهتة في غبشة المساء.

ماذا لو...؟!

سرعان ما بترت «مديحة» تساؤلها في خجل؛ كيف لها أن تتجرأ وتسمح لنفسها بمجرد التفكير في طلب «عدنان ولد الشاعر»؟ هذا سخف! تتساءل: ما الذي يعجبه في؟

مر أسبوعين على لقائهما، ولكنها لا زالت تعيد على نفسها كل

ما قيل لها ، وكأنه حدث بالأمس!

يقول لي أن عيناى واسعتان وكحيلتان. تُفكّر: وأن جسدي جعله مُتيمّم. هذا هراء؛ لم أسمع من رجل قط! حتى زوجي! إني عود ذرة جاف! قلت له ، فقال لي: سأرويك ، سأجعلك تينعين؛ فقط طاوعيني؟ زوجها «حمّاد» قصير القامة المُتَيِّس مثلها؛ ييسه عمله في الحقول مقابل جُنِيهات معدودة لا تُسَلِّم معدة طفل صغير من الجوع! لولا أن سَخَّرَ اللهُ لهم عطف الجيران وصدقتهم لماتوا جوعاً: حمّاد لم يقل لي ذلك من قبل. تُفكّر: وكيف يقول وكل همّه الشاغل لقمة وكُسوة لي ولا بنتيه! ولكن عدنان؛ ابن النعمة والعز، طول بعرض مثل الثور ، توفرت له اللقمة والكسوة وفاضت على جنبها؛ من سواه يتفنن في جدل الكلمات ، وصقل النظرات من عينيه الكحيلتين؟ ولكن؛ كيف تدب الحياة في عود جاف طاله الموات حتى وإن أغدقت السماء عليه ماؤها!؟ تتساءل مُتَعَجِّبة!

في موسم قطع سُنْبُل الذرة الرفيعة وجمعه؛ تخرج مع نساء القرية العاملات ، وجارتها «نعيمة» الثرثرة التي لا تُجيد شيئاً سوى لوك سيّر الناس.

قصيرة ممسوحة: لا مُقدّمة لها ولا مؤخّرة! تقول مديحة لنفسها ، وهي تسير خلفها في طريقهم إلى الحقول تستمع لها متأففة: هل تعرفين يامديحة حكاية «عالية» بنت عبدالعاطي. ثم تضحك: لقد طلقها زوجها بعد أن عرف أنها تُضاجع «عدنان ولد الشاعر» ، تقول النسوة أنها أمام ملاحظته وفحولته لا تملك إلا أن ترتمي تحت قدميه ل...؛ تعرفين أن أفعالها هذه تدل على أنها ذاقته من قبل!

يهبطن على الحقول التي تم إسقاط عيدانها السامقة على أيدي الرجال ، وفَرَشَت الأرض لتجف بشمس شأيب الشتاء على مهل. مُبَكراً يبدأ العمل ، يُؤزّعن كل امرأة إلى سماط ، وبمناجلهن يبدأن

مُقرِّفات ، وفي نهاية اليوم؛ تحصل كل واحدة منهم على زنبيل مشحون بسنبل الذرة الرفيعة. كانت ماهرة، سبقت النسوة، ولمّا اشتدّت حرارة الشمس؛ روى العرق الأجساد ، فطفحت بروائح أرض عطشى بللها الندى دون الشبّع.

اختلى بها عدنان. كان يجلس أمام خُص من البوص في بداءة الحقل، يتوارى خلف سحابة دخان رمادية؛ ينتظر فوران كنكة الشاي بين الجمر أمامه، وعيناه تتطلّع من وهلة لأخرى إليها خلف السراب. ذهب إليها دوناً عن بقيّة النسوة. فاجأها:

- مديحة؛ جئتكِ بالشاي؟

شدّت طرف خمارها لثاماً لتستر ارتعاشات شفيتها، فانقباضات قلبها متوارية. هي خجول، لا تتحمّل ولم تألف الخلوة بالرجال، ما بالك بمُغازل يداعب أوتاراً تهتكت من عنفوان الغفلة والنسيان؟ ما بالك بعدنان الذي تركع له «عالية بنت عبدالعاطي» التي لا تملك مديحة ربع جمالها! تساءلت: أين ما يتحدث عنه؟ إنه أعمش؛ لا يفقه في النساءٍ مثقال ذرة!

- لا تدارين شفيتك يا مديحة؟

يا لكذبك! أرادت أن تصرخ بها في وجهه، لكنها قالت بصوت مُتهدّج دون النظر إلى عينيه:

- يا أخي عيب؛ إني امرأة متزوجة؟

لماذا لم تقلها له!

- أنا متزوّج أيضاً؛ ولكن عندي مُشكلة: زوجتي دائماً ماتشتك من فحولتي الزائدة...

يجلس أمامها مُقرِّفاً؛ الأكواب في يد ، وفي الأخرى كنكة صدئة بالسُخام.

- سأعطيك ما تشاءين من مال ، سأغمس جسديك في الحريير ،
وسألفُ ساعديك بأساور من ذهب ، وقبل كل ذلك؛ سأشعركِ بلذة
لم تعرفينها من قبل مع زوجك؟

ارتجف جسدها: بنت عبدالعاطي؛ تعشقه لفحولته ، وزوجته
تتضايق منها؛ ياللعجب. امتدَّت يدها المُرتعشة لأخذ كوب الشاي
الذي صبه توًّا ، قبضت على الكوب ، وقبض على يدها ، عاودتها
الرجفة ، سقط الكوب من يدها ، انسكب فسلخ الشاي الساخن
يده فصَرَخ. كانت تشيح بجسدها عن وجهه: إنه جاد! ماذا أصابني؟
باللَّه؛ إن ملمس يده أنعم من يدي! أضاف بنعومة:

- خشونة يدك تعجبيني... ورائحة عرقك تسطلني؛ أتخيلك بين
ذراعي الآن؛ حيث يختلط عرقنا من شدة الرهز و...

توارى الصوت عن أذنيها ، وتحوَّل إلى صور حية ، ولُهاث وتآوهات
تعثَّرت في مخاضها؛ صور تداخلت في بعضها البعض ، لتكمل صورة
زوجها المُتَيَّبَس مثلها؛ يلهث فوقها مُتعبًا من دقائق الجماع القليلة!
وعدنان «الفحل» يقف عارياً بجوار حصيرتهما ينتظر دوره مُبتسمًا.
أفاقَت والتفتت إلى الخلف؛ كن النسوة قد أدركن كنه ما يحدث
هناك ، وخاصة «نعيمة» الثرثارة؛ تجمَّعن حولها يثرثرن ويتضاحكن.
ويلها؛ لن تتناثر على الألسنة قعدتهم هذه فقط؛ بل ستسج النسوة
قصصًا عنهما وحكايات؛ ستكون هي بطلتها ، وربما الصور التي
تداركتها توًّا يعلمن بها أيضًا ، وستتشعب الحكايات حتى تصل إلى
زوجها: حمَّاد المُتَيَّبَس مثلي! ولكن ماذا عساه أن يفعل لي؟

تساءلتُ ، فقاطع عدنان أفكارها:

- فكري جيدًا ، سأنتظركِ كل يوم في ذاك الخُص؛ ستجدينني
فيه منذ غبشة الفجر؟

نظرت إليه مُتسعة العينين ، وجدته قد وقف؛ حانت منها نظرة

خاطفة إلى قامته الفارعة أورثتها قشعريرة، فرمقها بنظرة صاحبها
 ابتسامة أورثتها الرجفة؛ ابتسامته التي لم ترها فقط بل شعرت بها
 وقد تغلغلت إلى أعماقها، انزلقت عبر معبر شائك بالعوائق، التي
 مهدتها بتغلغلها، وداعت أوتارها المدوزنة، وكأنه غرس في عمقها
 المُتصحر فسيلة خضراء. صحراؤها المنسية؛ لن تعد كذلك بعد
 الآن.

تركها ذاهباً إلى النسوة ينفث على يده المُلتهبة، بعد أن برد
 الشاي، واشتعل لهيبها. تخشى أن يراودها ثانية؛ حقيقة أو خيالاً؛
 تخشى أن يحاول إسقاط أمطاراً لري فسيلتها الخضراء؛ التي غرسها
 توأ، ليس بيده؛ بل بكلماته، ونظراته، وابتسامته، وجسده الفارع.
 لقد نسي أن يصب لها كوباً بديلاً من الشاي! ولم تكثر.

«إني عود ذرة جاف! قلت له، فقال لي: سأرويك، سأجعلك تينعين؛
 فقط طاوعيني؟»

دخلت القرية؛ والنساء متجمعات في حلقات يتسامرن أمام ديارهن.
 لا بد أنهن يكن سيرتها بألسنتهن الحادة. يرمقنها بنظرات خاطفة
 تعقبها ضحكات ووشوشات، ثم يطلبن منها مُتهكمات:

- تفضلي يامديحة؟

وفي حلقة أخرى:

- تعالي لتشربِ الشاي ساخناً يامديحة؟

- هي لا تشربه ساخناً حتى لا ينسكب على يدها ويحرقها!

ثم ينفجرن في الضحك، لَمَّا لا يجدن منها سوى الصمت. حتى
 حمّاد المُتبيس مثلها؛ تغيّر معها قليلاً، هي تدرك ذلك، في اليوم
 إياه، وصلت البيت مساءً، وشعرت بأنه عرف من جارتها «نعيمة» كل
 ما حدث ومالم يحدث؛ نظراته باتت قليلة الحيلة، عاجزة عن زجرها،

ضعيفة مُستسلمة، وصامتة!

تعرج على دُكان القرية الكبير، تشتري صابونة برائحة للاستحمام، وتعد صاحبتة «الحاجة فرحانة» بأن تدفع ثمنها في الغد، فتومئ لها موافقة.

تماما الفتاتين، وبنام زوجها، وتسهر هي وقرقعة الحطب في الموقد أمامها؛ تغلي الماء، وتُجهِّز العجينة اللزجة في الإناء، والقمر بالأفق يقترب من الاكتمال خلف سحابات مُتناثرة، وعواء الكلاب ينفجر من فينة لفينة يؤنسها. تحمل الإناءين تِباعاً، وتضعهما بجوار الطست، وجوار ثياب نومها النظيفة الملونة المُنكفئة على المِعلق، في الغرفة المُعزلة بباحة الدار.

تخلع ملابسها في نور القنديل شاردة، تتحسس أجزاء جسدها التي تراها بعين جديدة؛ ربما عين عدنان! ثدياها باتا جذابين، وقدها يقشع من لمسة يدها، ورائحة عرقها باتت كالمِسك: ربما هو مُحق، وأنا التي لا أدرك!

بالعجينة الزجة؛ تتخطف الشُّعر من وديان جسدها المنسيّة، ثم تدعك كامل جسمها بالليفة والصابونة ذات الرائحة جيداً، وبِقِطعة من طوبئة آجر ناعمة الحواف؛ تجلي الصدأ عن قدميها وشقوق قدميها. وبعد الانتهاء؛ وفي نور القنديل الواهن فوق المسرج بجوارها؛ تقف بقميص نومها الأبيض القصير لتتزيّن أمام لوح مرآة لصق في الحائط بطين. تُكجّل العينين الواسعتين، وتُمسّط الشعر الهش المموج؛ تتحسس بأناملها الخشنة خدها وشفتيها شاردة...

«لا تدارين شفتيك يا مديحة؟»

تتحرك صوب الحصيرة، وزوجها يغط في نوم مُنبعث عنه شخير مرتفع، تمتد يدها لتوقظه مرددة في نفسها: لقد مرّ على آخر مُضاجعة بيننا أسبوعين وأكثر. ولكنها تتراجع! ترتدي جلباباً أسوداً

نظيفاً فوق قميص نومها ، وتجلس فوق الحصيرة لاصقة ظهرها إلى الجدار ، مدترّة نصفها السُّفلي بالغطاء؛ تُفكّر.

لا تدري كم مرّ من الوقت ، ولكن صدى أذان الفجر المتسلل من كوة أعلى الجدار ، ومن بين فراغات بوص السطح؛ جعلها تنتفض من جلستها مُستيقظة ، وتنهض صوب حُمارها؛ تتلفع به ، وتتحرّك صوب باب الدار.

ولمّا تخرج؛ تتأمل غبشة الفجر بشبق ، وتتهدّد تهيدة طويلة ، تهروّل عقبها إلى خارج القرية. تحس بخير ماء المجرى ينعكس ليسير معها في الطريق صوب الحقول ، وأشجار النبق الملقوفة بالضباب كفوفاً تُشير لها بأن تهروّل.

راودتها ذات الصور التي تداركتها مع كلام عدنان لها ، ولكن هذه المرة؛ كان عدنان يزيح عنها زوجها حمّاد المتيبّس مثلها؛ ليحصل على دوره مُبتسماً!

ابتسمت لِمَا تردّدت برأسها كلمات عدنان ولد الشاعر آنذاك:
«سأنتظرك كل يوم في ذاك الخُص؛ ستجدينني فيه منذ غبشة
الفجر»



العائدون ليلاً

وكما حدث في الشتاء الأول لمقتل أبي، حينما كان عمري ست سنوات فقط؛ حدث في الشتاء الثاني والثالث وحتى الآن لازال يحدث. لا أدري لِمَا الشتاء بالذات! ربما لأن أبي قُتِلَ فيه! ربما.

في هزيع الليل الثاني؛ تسكن القرية مثل الموتى في قبورهم، وتهجم سحابات الضباب المُشْبَعَة بالندى، لتدثر حقول القمح والبرسيم، فتومض قطرات الندى فوق أوراقهما بضوء القمر الخافت، قبل أن يتلاشى خلف موجات الضباب؛ التي تلتف بدورها حول البيوت الطينية المتناثرة بين الحقول.

من بين البيوت كان دارنا ذو الطابق الواحد يتألق وحيداً بأطراف القرية؛ مُنْعَزَلاً عن تَبْجَح العجائز، ونزق الأطفال. هكذا كانت تُرَدِّد أمي! أما أبي فيبرر: وبعيداً عن تلصص الغُرباء.

ولكني كنت غاضباً من سُكُنْتنا البعيدة هذه؛ فقد كان يلزمنا أنا وأبي زهاء نصف ساعة هرولة، حتى نصل إلى دكاكين القرية وسوقها، ماريين بطريق ترابي مُتَعَرِّج؛ ملؤه شجيرات الشوك القصيرة، التي أجد صعوبة في تخليص شوكلاتها من ثيابي وقدمي. كان أبي -قبل موته- دائم التَخَفِّي: يتلثم، ولا يتجول بالقرية نهاراً، ويقضي حاجاته ليلاً بَصُحْبَة بندقيته الطويلة طولاً فاقني. ولَمَّا كُنْتُ أسأله عن السبب، يقول لي: الشمس تؤذي وجهي. كُنْتُ أصدقه.

يتحرك مزلاج بابنا الخشبي ببطء، وكأن يداً خفية تفتحه من الداخل، ثم يُصِرُّ الباب صريراً خشناً ممطوطاً جراء فتحه ببطء،

ويدخل هو ، ثم يُغلق الباب من خلفه ، وكأنما جُذِبَ بيدٍ من الخارج!
وقبل أن تتضح معالم وجهه في مظلة نور القنديل المتراخ في
باحة الدار - ينطفئ القنديل! ولكنني أراه بوضوح حتى في الظلام!
ليلتئذ؛ تساءلتُ مُتَعْجَبًا: ماذا تغيّر في ملامح أبي بعد موته؟!

تأملته، فوجدتُ عيناه قد تآكلت أجفانها، حتى ظهرتا دائرتا
محجريهما العظمتين. المُقل لازالت موجودة، ولكن استحال لون
بؤبؤيهما الأسودين إلى أحمر يقطر دمًا! لم يكن هناك أنف؛ وكان
محلّه ثقبًا مُهشّمًا في الجمجمة، نافذًا في الرأس، إثر اختراقه
برصاصة، وقد تلطّخت حوافه - من الخلف - بالدماء المُتجمّدة، أما
ما تبقى من بشرة وجهه صار مُشعًا بزُرقة الموت، ممتلئًا بشقوق غائرة
في العظم.

لا أدري لماذا يحتفظ أبي بجلبابه المُخرّق من أثر نفاذ طلقات
الرصاص منه - حتى بعد موته؟!

كان جسده باد أسفل جلاباه جيفة نصف مُتحللة، يتساقط من
خلفه دود رمادي غريب، بل أحيانًا يتساقط من فمه ذو الشفة الواحدة
السفلية فقط، أو من ثقبِي أذنيه المتآكلتين. وتظهر عشرات الديدان
مُتجمّعة تنغل في صدره الذي خوى من جلده ولحمه ورثتيه وما تبقى
إلا القليل، وضلعان مهشّمان يتعلّقان بعموده الفقري الصديء.

لا يكثرث أبي لوجودي ومراقبتي له؛ يقترب من غرفة نومه،
وأمي ذات الخمسين عامًا نائمة بداخلها. يخلع جلاباه ويقذفه بعيدًا،
ثم يدفع الباب ويدخل، والديدان تتساقط أرضًا من الحُفر الغائرة
بحيفته، ثم تتبعه بسرعة غريبة من جديد، ويختفي بالداخل.

لكنني أراه حتى من خلف الجدار الطيني. يقترب منها في الظلام،
فتئن قليلًا، ثم تتحول إلى البكاء، فيرفع عنها الغطاء، ثم ثيابها
السوداء ليضاجعها؛ تشعر به، وتتفاعل معه رغم أنها لازالت نائمة!

هنا أستحي أن أنظر، فأشيع بوجهي عنهما، وأشعر بأن الديدان التي سقطت منه أرضاً؛ تتسلق السرير الطيني، ثم تتسلقهما وتنهش في لحمهما.

أتربّع فوق المصطبة أمام الغرفة أفكر: ماذا ستُنجب حياة؛ ضاجعها الموت غفلة؟

ينتهي ويخرج، أنهض فالتقطُ جلبابه وأمدته إليه في صمت، ينظر إليّ بحنان أبوي أفنقهه مذمته. يضع كفه التي لم يتبق منها غير جلد يابس وعقل عظام صدئة فوق رأسي؛ فيشيب شعري من توه، ويتصدع وجهي مثل جدار مُتهالك. ثم يرتدي جلبابه ويرحل؛ فأعد لقعدتي وجماً.

تستيقظ أمي حزينة مولولة كعادتها بعد كل زيارته لنا. تتذكر يوم مقتله، فأشعر بأنني أرى ما حدث أمام ناظري: لقد كنت موجوداً مع أبي.

كان شتاءً، وقد كنا عائدين من دكان القرية الكبير، نحمل مؤناً للبيت في جوال خيش؛ لم يصطحب البندقية هذه المرة. آنذاك؛ لم يمهلني أبي سوى دقائق لأسلم على أصدقائي؛ قعدت معهم فوق المصطبة، كانوا أربعة، لكننا لم نطل قعدتنا هذه، أو نحكي حكايات مثيرة كالعادة، وسرعان ما جذبني أبي من يدي، فودعهم وأنا أُجرجر، وهم -الأندال- يضحكون.

في طريقنا؛ شعرتنا بأن أحداً يتبعنا في الظلام، فسارعنا الخطى، وأدمت الأشواك سيقاننا. طالت الطريق، والجوال ثقيل! اقترب من خلفنا وقع الأقدام بصحبة همهمة. لم يكن هناك مهرب. يوشوشني أبي:

- اذهب لأمك، وهات منها البندقية وعُد لي ركضاً؟

أسأله هلماً:

- من هؤلاء يا أبي؟

- إنهم لصوص؛ هيا إذهب ولا تعد إلا بأمك والبنديقة قبل أن يقتلونني؟

أتعجب من قوله فأسأله:

- ولماذا يقتلونك يا أبي؟

يأخذني من يدي، نختبيء خلف شجيرة شوك، مُنزِلين الجِوال أرضاً:

- سأقول لك الحقيقة - ثم يزفر بضيق - هذا نثار ياولدي؛ هم عائلة من بلدة في الجنوب، يلاحقونني منذ سنين؛ لقد قتلتُ ابنًا لهم في مُشاجرة وهربتُ.

أقاطعه شاهقاً:

- ألدلك سكتاً في بيت ناءٍ بأطراف القرية، و...

نصمتُ لحظة، نسمع خلالها فرقعة أجزاء بنادق آلية كثيرة عن كَثب. يضع أبي كفه التي ترتعش بشدة فوق كتفي، ويقول بصوت مُتهدِّج:

- إذهب ياولدي واحتضن الحياة؛ أنت مازلت صغيراً، وربما يكن حظك أفضل مني؟

تدمع عيناى، وتدمع عيناها! لكنني لم أشأ الرحيل. لماذا يموت لوحده! وكيف احتضن الحياة وأنا لا أشعر بها إلا معه وبصحبة أمي؟ يوقظني بلكمة من قبضته؛ أمراً إياي:

- اهرب الآن؟

اشيح عنه بجسدي، وأركض صوب البيت. ينطلق الرصاص بغزارة تفزعني! استديرُ صارخاً؛ فأجد أبي غارقاً في بركة دماء، ويتحلقه رهط من الرجال ملثمين، ممسكين ببنادقهم الآلية،

يقتربون مني في صمت حذر!
في ذلك الشتاء؛ عدتُ لأمي كي أنبهاها؛ وقفتُ أمامها أبكي
وأصرخ؛ لقد قُتل أبي! لكنها لم تراني، اقتربتُ منها، حاولتُ لمسها؛
لم أنجح؛ كل شتاء آتي إلى بيتنا لأنبهاها وأفضل!
كثيرًا ما أتخيّل نفسي عند الدكان الكبير، مُتمنيًا أن نقعد في
حلقة كعادتنا، ويحكي كل واحد من أصدقائي القدامى حكاية
مُثيرة، وأنا سأحكي حكايتي، وحتماً ستكون الفائزة. سيشترون
لي حلوى «الملبن» على نفقتهم.
ولكن ما يحيرني حقًا ويقلقني: كيف سأتجسّد؟ وإن نجحتُ؛
فهل سيخافون مني إذا تجسّدتُ لهم في هيئتي قبل مقتلي؛ إثر مقتل
أبي بالرصاص، على أيدي الملتيمين ليلتئذ؟ أم بعده؛ فموتي قد
تغيّرت ملامحي كثيرًا!



زمهير

ليلاً؛ ركض إلى ركن بالمحطة يرتجف هرباً من البرد القارس.
بين عامودين؛ قعد القرفصاء، شدَّ على جسده الهزيل أسماله البالية.
المحطة خاوية لا حياة فيها. يشتعل البرق من فينة لأخرى فتلمع غير
بعيد عنه القضبان الحديدية، والرعد يثير الرُعب في أعماق قلبه،
والأمطار تهطل مُفرقة فوق الرصيف المُترب، وتتطاير قطرات الماء
صوبه حيث ينزوي فتُبَلل ثيابه.

عواء كلاب متقطّع ينطلق من خلف سور المحطة بالجانب الآخر
أمامه، وشجرة نبق كبيرة تلمع أوراقها المُبللة من أعلى السور،
أسفل ضوء عامود الإنارة، ورائحة الحشائش تعبق بالمكان مُنبعثه
من الحقول حول المحطة.

بعد هبوط حدة المطر، وشحوب البرق، وخفوت هزيم الرعد؛
على فُتات الضوء الواهن القادم من عامود الإنارة هناك؛ بدا الجالس
طفلاً في العاشرة من عُمره، هزيل الجسم، رث الثياب؛ تصطك
أسنانه بقوة من البرد، وتتتاب جسده رجفات متقطّعة؛ يغمغم بأنين
مُتأملًا قرقعة حبيبات المطر أمامه.

أول قطار سيمر بعد ساعة؛ هو لا ينتظره، فالقطارات لا تتوقف
أبداً في هذه المحطة، فقد هُمِّشَت منذ خمس سنوات، منذ حادثة
الثأر الشهيرة التي قُتل فيها العشرات؛ سألت دماؤهم على ذلك
الرصيف أمامه، وبين القضبان، وتم إغلاق بوابتها الكبيرة،
ولحامها بالحديد، ولكنه دائماً ما يجد منفذاً ليدخل كلما شاء
أن يدخل.

مزلقان يقع بالقرب من المحطة؛ يلجئه ليلاً ويمشي بين القضبان خبيئاً، أو بجانبها حتى يدخل المحطة، ويبتسم ابتسامة خبيثة؛ فرحاً بأنه تغلب على غلق الشرطة للبوابة.

هو يرى أنه أذكى منهم؛ أذكى من الشرطة كلها، أذكى من كل الضباط، وأذكى من العساكر أيضاً بكل مُسدساتهم وبندقياتهم الآلية.

لا يآبه لكلام الناس والأطفال: «المحطة مسكونة بالجن والعفاريت».

لا يخاف منهم ولا يراهم؛ بل يتمنى أن يراهم ليبحث بينهم عنه؛ ما دام القتلى يظهرن عفاريتاً فهو يُريد أن يرى عفريته ولو مرة واحدة؛ فقد توحشه كثيراً، بل إنه يأتي إلى المحطة خصوصاً طمِعاً في رؤيته، ولكنه لا يراه!

يقولون أنه كان طويل القامة، وعريض الصدر، ذا هيبة ووقار؛ هو يعرف ذلك، ويعرف أنه كان وسيماً؛ يُشبه أولاد الأعيان، يُشبه العمَد، يشبه المُتعلِّمين، بيد أنه عامل قصعة (قرونجي) بمصر لا أكثر.

يتذكره؛ كان عُمره خمس سنوات آنذاك، كان يُحبه، وملتقُّ به تعلقاً عجبياً، ولمَ لا فهو ابنه الوحيد. كان أبوه ذو الأربعين عاماً لا يلوي على مكان، سواء زيارة لأصدقائه، أو صلوات بالمسجد؛ إلا ويده على يده؛ يحمله على كتفيه، يَضُمُّه إلى صدره، يمسكه من يده ويمشيان بجوار بعضهما البعض ببطء سلحفاة، وعند العودة؛ يعرج به إلى دكان بالقرب من المحطة، ويشترى له مايشتهييه من مقرمشات وحلوى.

وأحياناً يدخل به إلى المحطة؛ يُريه القطار، ولَمَّا يسمع الابن بوق القطار المُزعج يصرخ ويحاول التفتُّل منه والهرب، وتسيل دموعه رُعباً، ولكن أباه لا يتركه حتى تتوقف الأبواق، ويظل يضحك على

خوفه، ولمَّا تتوقَّف ولمَّا يتأمل ضحكة أبيه الصافية؛ يضحك وخديه
مُخضَّلين بالدموع، ثم يحتضن أبيه ويُغمض عيناه ويشعر بالدفء.

وبالمساء؛ يعودا إلى الدار، ولمَّا يصلا يكن قد نام بحضن أبيه؛
حينئذٍ تحمله أمه وتُسَمِّي عليه، وتُريحه بفراشه، وتظل تدعوا الله أن
يُبارك لها فيهما.

وإن كان مايزل مستيقظًا؛ يتحلَّقون المجرم الطيني في باحة
الدار، يشعلون به الحطب والجلة، ويدفنون بقلبه كنكة الشاي،
ومن فوق الحُصْر؛ ينعمون بالدفء. ويظل الابن مراقبًا الكنكة
بانظار فورانها، وتتعكس السنة النار بحدقتيه. وما أن تنتهي أمه من
تلقيم الأكواب، إلا وتجد جفنيه جعلًا حدقاته تكفان عن المراقبة
لينم.

بالنهار؛ كان يلعب مع أقرنائِهِ، واقترحوا عليه أن يذهبوا إلى
غيطان النخيل، ليأكلوا الرُّطب الأصفر والأحمر والأخضر،
والتَمَعَتْ في رأسه الألوان؛ فصاحبهم إلى هناك، دون إخطار أبوه!

وبعدما وصلوا؛ لم يجدوا رطبًا متساقطًا، واخترقت شوكة
نخل قدمه، فسقط أرضًا وانفجر بالصراخ، فتركه الأطفال وفروا
مذعورين، ووجد نفسه وحيداً بين النخلات السامقات. وفجأة؛ برز
أبيه من بين الحقول لاهتًا، ولمَّا رأى دماثه تسيل، وصراخه لا يتوقف؛
أدمعت عيناه، وقال بصوت خفيض:

- لو قلت لي أنك تشتيه لأتيتك به دون أن تُجرح!

اقتلع الشوكة من قدمه، وراح يتأمل جرحه، وسقطت دمعاته
على الجرح، فشعر الإبن بأن آلامه توقفت، وبرأ جرحه، وكان
دمعات أبيه كانت الترياق.

وقتذاك؛ صَمَتَ، أشار إلى النخلة العالية ذات الرطب الأحمر؛
فهم الأب، تسلق النخلة، ولمَّا وصل إلى عراجينها أخذ يحلبها بيد،

فيتساقط الرطب بكثرة، وباليد الأخرى تشبث بالجريد.
فنهض الابن فرحاً ومطلقاً العنان لضحكاته، غير مُكترث
لجرحه، وهرع صوب الرطب، وأخذ يلتقطه ويعب منه بحجر جلبابه،
وسمع صوت أبيه ساقطاً عليه من أعلى صائحاً:

- أتُحب أبيك؟

- أُحبك أبي؟

- هل ستخرج ثانية دون أن تُخبرني؟

- لا لن أخرج إلا معك! وعاد لضحكاته من جديد.

أما ذلك اليوم الشؤم؛ فقد انتهت أجازة أبيه، وجاء ميعاد عودته
إلى عمله في مصر، جهّزت الأم الحقائق، حملها، استوقفه الابن
فأنزلها، سلم عليه، فبكى وتشبث به مُلِحاً:

- خُذني معك إلى مصر!

- في المرة القادمة إن شاء الله؟

زاد بكائه، وعلا صياحه:

- لا؛ كل مرة تقول سأخذك في المرة القادمة، ولا يحدث شيئاً!

تدخّلت أمه قائلة:

- أتترك أمك لوحدها يا حبيب أمك؟

نظر لها قائلاً:

- منذ وُلدت وأنا أعيش معك لا أفارقك؛ أريد أن أذهب مع أبي

مرة؟ - ثم نظر لأبيه باكياً - خذني معك هذه المرة، لن أدعك تذهب

وتتركني أبداً؟

تصعب العرق من جبين أبيه؛ هو لا يشأ أن يُغضبه، يُحبه ولا يريد

له البُكاء، يتعذب إن رآه يبكي، لكن كيف يُرضيه؟ أيأخذه معه

وهو لا يتجاوز الخمس سنوات؟ يأخذه معه ليرى أبيه وهو يرزح تحت القصة المملأى بالخرسانة، ويجري على السقالة لاهثاً وعرقه يسيل من سائر مسامات جسده، ومُقاوِل الأنفَار يُصيح به أمراً ألا يبطيء؟ أم يأخذه معه كي لا يأكلا سوى الفول والبادنجان والعدس؟ أم يُسكنه معه بتلك العُشس الخشبية التي لا تُدفيء في برد ولا تُرطب في صيف؛ التي يسكنها العمال حيث لا ماء، لا كهرباء، لا دورات مياه إلا على بعد مسافة أميال!

أما أنه يتحمل كل ذلك من أجله ومن أجل أمه؟ سيبيكي قليلاً ثم يتوقف؛ لابد أنه سيتوقف، فلا أحد يبكي طوال عمره أبداً؛ فالدموع مثلها مثل أعمار البشر؛ دائماً يأتي لها ميعاد تنضب فيه وتتوقف، وتجف المُقل.

تكدّرت ملامح أمه الشاحبة، وانزوت في ركن قصي فوق الحصيرة تبكي؛ تارة على بكاء ولدها، وتارة على فراق زوجها.

سنة أشهر سيغيبها، فلتحمل كما تتحمل كل مرة، ماذا سيحدث في الدنيا؟ لا شيء، ولكن هذه المرة قلبها ينتفض كطائر مُبلبل بجناح مكسور أسفل سماء مُمطرة؛ حيث لا مهرب له من الرجفة والعجز؛ كما لا مهرب لقلبها من الانتفاض سوى التوقف عن الخفقان، أو أن يظل زوجها بجوارها، لا يُغادرها. تبات الليالي قارسة البرودة مُنكمشة في فرشتها؛ لا تتذكر أنها نظرت بالمرآة مرة في غيابها، بل أنها لا تتذكر شكلها آنذاك؛ تغار من النساء جاراتها وتغبطهن؛ مُعظمهن لا يُغادرهن أزواجهن؛ يتمصن كل خميس، ويُزلن الشعر عن أجسادهن، ويغتسلن، ومن ثم يضعن الكُحل؛ فتشرق وجوههن، ويرتدين ثياب النوم المُلوّنة القصيرة، وفي الصباح يتبارين في سكب طسوت ماء الاستحمام المعكر بالصابون.

وهي مُنكمشة في فرشتها؛ تشعر بأنها معهم في عُرف نومهم؛

تُراقبهم، وتتسمع أغنوجاتهم، بل تُحصي عليهم ضجعاتهم. فليسافر الآن، ولتؤوب إلى إنكماشها ومراقبتها لجاتها، ولتنتظر الأجازة القادمة، كما انتظرت تلك الأجازة، والأيام دائماً تمر، التعود حفي بتخفيف الآمها.

ظل الابن بيكي، والأب لا يدري سبباً لدموعه هو أيضاً التي راحت تهطل في صمت؛ لماذا تُقلّب عليه المواجه؟ لماذا يُسترجع شريط حياته الآن؟

حُزن مجهول ران على الجميع، حُزن بثه القدر بقلوبهم، حُزن على فقدان ربما تشعر باقترابه القلوب وتخشاه، لكن كنهه عن العقول يظل مُطلسم؛ لا بد للأب أن يغادرهم لينتهي كل ذلك، وحتماً ستجف المُقل.

ترك ابنه بيكي؛ غادر البيت، ولماً وصل إلى المحطة؛ وقف بانتظار القطار الذي كان على وشك الوصول. من حوله رجال كثيرون مُسافرون؛ واقفون يتلفّتون من حولهم، ينظرون من فينة لأخرى صوب بوابة دخول المحطة قلقين، وكأنهم يخشون قدوم خطر ما.

انساب القلق من بينهم، ليلج صدره، وأصبح يتلفّت مثلهم صوب البوابة؛ يخشى أن يلحقه ابنه ويتشبّث به ويُصر على ملازمته. فجأة؛ دخل رهط رجال مُسرعون، بدوا مُثّمين وبأيديهم بنادقهم الآلية.

بمجرد أن دخلوا؛ دُهل المُسافرون القلقين، وأبرزت الأسلحة من الحقائق والثياب، وبدأ تبادل إطلاق نار، وحمي الوطيس، وعلا الصراخ، وسادت البلبلة والضجة. وبعد دقائق؛ توقف كل شيء وساد الهدوء، وسالت الدماء، وتطايرت الأرواح صوب السماء، ومن بينهم؛ كانت روح الأب تبتسم مُحلقة لأعلى.

وبعد لحظات؛ دخل الابن إلى المحطة دافع العينين، باكياً
شاكياً مُغمغماً؛ باحثاً عن أبيه. لقد تفلّت من أمه، وقصد المحطة
ركضاً، وراحت أمه تلحق به مُلملمة في ذيول ثيابها، زاعقة ومُحذرة
له من التماذي في الخُطى صوب المحطة، ولكن دونما فائدة.

هاله الهدوء، وهالته جُث البشر الغارقة في برك الدماء؛ شهق،
بكى، راح يصرخ بأعلى صوته مفزوعاً، لمح جثة أبيه فصمت!
ركض صوبها؛ وجده غارقاً في دماءه، وثقوب جسده كثقوب
الغُرْبال؛ سقط بجواره، راح يتحسس جسده بكفيه الصغيرتين
جاحظ العينين، مُتسارع الشهيق والزفير، هائلة دموعه كصنبوري
مياه المُبرد المعطوب بالمحطة.

تأمل وجه أبيه فوجده مفتوح العينين مُبتسماً، ذات الابتسامة
الصافية الرائقة التي أحبها فيه، والتي ما إن رآها حتى لو كان
بيكي بحُرقة إلا وأثارت فيه الضحك والسعادة والإحساس بالأمان؛
لذا ضحك، وظل يضحك، حتى سمع بوق القطار المُزعج يقترب؛
لم يبكي خوفاً منه، لم يضع اصبعيه بأذنيه، ولكنه راح يقبل أباه،
ويحضنه بلهفة العائد من السَفَر.

توقف القطار، وراح الركاب ينزلون إلى الرصيف وسيماهم
مُكدّرة. وبدأت الشرطة في ولوج المحطة، وضجت الدنيا من حوله.
وفجأة؛ وجد شُرطياً يخلعه من حُضن أبيه خلعاً. لم يكن يعلم آنذاك
أنه الحُضن الأخير، أو أنه لن يراه ثانية، لم يكن يعلم أن مثل هذه
اللحظة تُسمى: وداع. توقف عن الضحك، ولاذ بصمت حجري، وشعر
بأن كل الأشياء من حوله أصبحت صورها مُشوشة؛ لا يبين فيها
أحد؛ اختلطت الأشكال بالألوان، والأصوات بالهدوء.

- ميت يا أفندم!

قالها الشرطي الذي حمّله بعد القاء نظرة على أبيه إلى ضابط خلفه.

وقتئذ؛ لم يكن يصدّق حقيقة وجود الموت للبشر! ولماذا نولد مادامت نهايتنا موت! ولماذا تسيل دمائنا مثلما تسيل دماء الدجاجة عند ذبحها: نحن دجاج أيضًا يُمكن ذبحنا وإهراق دمائنا لنموت بسهولة كذلك؟

كانت صرخة أمه المكتومة آخر صوت استطاع أن يتعرف عليه من بين المزيج المُبهم من حوله، شعر بأنها خارجة من جوف الأرض؛ لها أذرع كثيرة تتشعب لتلتف حول كل المحسوسات من حوله، ثم أُغلقت عيناه رغماً عنه.



عندما توقَّفتُ الأمطار عن المحطة؛ نهض من موضعه، دلف صوب المكان الذي قُتل فيه أبيه بثقل، وقف فوق آثار الدماء، نظر إلى أسفل مُرتعشاً، زادت رجفاته، نزل على ركبتيه؛ تحسس آثار الدماء أسفل طبقة مياه الأمطار الراكدة، راح يدعكها بكفيه، تلوّث المياه بآثار الدماء القديمة والتراب، توقف عن الدعك؛ عنّت له فكرة ما.

وقف؛ التفت إلى كل الاتجاهات يتفحصها؛ لم يجد أحداً، نادى بصوت خفيض:

- أبي؟

لم يُجبه سوى الصمت، نادى مرةً أخرى:

- أبي؟

قطب وجهه، قعد محله مُتربعاً، وأخذ يتكلم بشرود:

- أريد أن أخبرك عن سرّاً يا أبي؛ لقد تزوجت أمي رجلاً غيرك

بدون أن تشاورك، وحتى أنا لم تشاورني، ولو شاورتني لَمَا وافقت؛ لقد أتت به إلى دارنا ويعيش بها، بل لا يتركها أبداً؛ لا يسافر إلى مصر ليعمل مثلك، يقولون أن لديه قطعة أرض يؤجرها ودكان، وأمي دائماً تضع الكحل، وترتدي الثياب الملونة، وبالليل أسمع ضحكاتها فأضحك، وبعد لحظات أسمع آهاتها فأبكي؛ ولكنني فجأة أجدها تعود لضحكاتها مرة أخرى؛ فأحтар وأذكرك يا أبتى وأبكي. لقد جُنْتُ أُمي منذ زواجها بهذا الرجل، هذا الرجل ساحر؛ لقد سحرها، حتى أنا لم تعد تُحبني مثل زمان، حتى هذا الساحر لا يضحك في وجهي، ولا يأخذني إلى الدكان، ولا يربّت على ظهري إن وجدني أبكي؛ هو ليس مثلك.

تلّفت يمنة ويسرة في غيرما اكرات، ثم أضاف:

- لقد أنجبت أُمي ولدين، تقول لي أنهم أخوتي، ولكنني لا أشعر بأنهم أخوتي؛ لأنك لم تقل لي أنهم أخوتي، لذا لن أصدق أنهم أخوتي أبداً.

صمت قليلاً ثم استدرك قائلاً:

- هل تصدق يا أبي؛ أُمي عندما تجد واحداً من ولديها الصغيرين يصرخ، تجري عليه مُتلهفة، وأنا حينما أبكي، تضربني على ظهري وتقول لي: «دعك من أمور الغيرة، فأنت لم تعد صغيراً؟» ولكنني لازلتُ صغيراً يا أبي؛ أنت تعلم أنني لازلتُ صغيراً.

صمت لحظات كانت كافية لتقطر دمعاته، ثم أردف بصوت

متهدج:

- أفتقدك يا أبي أريد أن أراك؟ أريد أن آتي إليك حيث أنت! لقد ضقتُ ذرعاً بزواج أُمي وبأُمي الأخرى - ثم مستدركاً - أتعرف يا أبي؛ لقد قال لي زوج أُمي مرة حينما رأني أبكي وأناديك: «إن أردت رؤية أبيك، اذهب إليه؟»

فقلت له:

«كيف» قال:

«مُتْ وَأَنْتِ تَرَاهِ» ثم ظل يضحك ضحكات أخافتني.

انبج ضوء قطار قادم من بعيد؛ توقف الابن عن الكلام؛ راح يتأمله شاردًا، اقترب منه أكثر؛ بدا أنه قادمًا على القضبان المُلاصقة لإفريز المحطة؛ وقف الابن على حافة الإفريز مُبتسمًا، ثم قفز إلى أسفل.

وقف بين القضيبين أمام القطار، راح يتأمل ضوءه الذي يشهد شيئًا فشيئًا، وأبواقه المُزعجة التي تعلوا رويدًا رويدًا، والأرض التي تزداد اهتزازًا أسفل قدميه. كان يُفكر في أن أباه: سيفرح بذهابه إليه كثيرًا! لقد افتقد ضحكته الصافية! مؤكد أنه سيحتضن أبيه أخيرًا ويُغمض عيناه ويشعر بدفء أشد من دفء المِجْمَر المُشتعل في زَمهرير الشتاء، حينما كانوا يتحلقونه جميعًا في باحة الدار.



الساخِطان

لا أدري لماذا خُلِقنا؟
ولماذا تشرقُ الشمس من جديد؟
كل يوم تُشرق؛ لا تكلِّ ولا تملِّ، لا تأخذ عطلة يوماً، وأستيقظُ
أنا رغماً عني مثل كل صباح!
ما عدتُ أطيقتها؛ أكرهها، أكره شروقها، أريد أن أنم، النوم
لذيذ، أما الاستيقاظ مبكراً فهو سوء العذاب!
لماذا أستيقظُ؟ لأشقى وأرهق نفسي وجسمي، وأشتم رائحة
العرق والقمامة طوال النهار؟! لماذا أستيقظُ؟ أليَنظرون لي الناس
من نوافذ سياراتهم بقرف واشمئزاز؟ أم لأتسامر مع حماري الهزيل
الضامر الذي لا يفهمني أبداً ويستمع إليَّ بعينين مفضلتين في
بله، وما أن أنهى كلامي حتى يشيخ برأسه، ولا أعلم أيسخر من
كلامي، أم ينش الذباب الذي تجمع حول عينيه؟!
ذات مرة خرجتُ من الكوخ الخشبي الذي أسكن فيه بعيداً عن
المدينة، بالقرب من مقلب قمامة كبير؛ يكفيني وجوده بالقرب
مني مؤونة الطعام والثياب.

كنت قد أنشأتُ للحمار حظيرة صغيرة خلف كوشي، وما هي
إلا سور خشبي قصير، وبدخلها مربوط، وطوالة اقتطعتها من برميل
صاج، لأضع له بها التُّبن، أو البرسيم، أو أي علف أحضره له من
المدينة. كان سقفها مهراً من ألواح وقماش يرتكز على أربعة أعمدة
خشبية هشة، لا يمنع لفحات الشمس من سلخ جلده، وكانت العربية
«الكارو» متروكة غير بعيد بجوار جراكن المياه البلاستيكية،

وأكوام الخردة.

سكبتُ له من الجوال بعض من التبن في الطوالة ، وألقيت بالجوال خارجاً ، وهممتُ أن أقعد بجواره ، فوجدتُ روثه في كل مكان ، حددتُ مساحة تكفي لقعدتي ، وكانت لا تتعدى النصف متراً ، فأنا هزيل الجسم لا أحتاج إلى أكثر من ذلك ، وأزحت الروث بيدي. ثم قعدتُ أتأمله وهو يأكل بنهم وقد أسندتُ ظهري إلى السور الخشبي القصير ، وراح يرمقني بنظرة لا معة من فينة لأخرى أثناء جرشه للتبن. لا أدري ما معناها ، ربما كان يود أن يدعوني لأشاركه في أكل التبن ، ليثبت لي أنه ليس ببخيل أبداً ، ولكنه في ذات الوقت خائف لأن فعلها وأكلتُ معه ينتهي التبن قبل أن يشبع هو!

هممتُ أن أسبه ، فقلت له:

- يا حمار!

ثم ضحكتُ ، لأنها بالنسبة له ليست سُببة أو عيب ، بل هي عين الحقيقة ، ولكنني فكرتُ؛ ربما مثله مثل أي إنسان تقول له «يا بني آدم» وأنت تحاوره بغضب ، ويعتب عليك قائلاً: «أنا بني آدم؟!» فتقول له: «لا ، أنت حمار!» فيسعدُ كثيراً!

أتساءلُ؛ ما الفرق بيني وبين ذلك الحمار؟ لا شيء البتة ، يستيقظ مبكراً كما أستيقظ ، يأكل كما أكل ، يتبرز كما أتبرز ، يضاجع كل مدة أتان ، ناهيك عن طول ذكّره الذي لا يمتلكه أضخم رجل على وجه الأرض ، وأنا لا أجد حتى ماعزة تؤنسني ، ويذهب معي أينما أذهبُ ، ويعمل معي فيما أعملُ؛ إذاً أين الفرق؟

يقولون أن الإنسان حباه الله عقلاً ، والحمار لا يمتلك عقلاً ، وبماذا أفادني أنا الإنسان ذاك العقل الذي يتحدثون عنه ، وأنا والحمار في مكان واحد ، وفي عمل واحد ، بل في حظيرة واحدة!

ضربتُ يدي بجيب بنطالي القماش المهلهل، أخرجتُ علبة سجائر، وقداحة، ودفترًا من ورق البفرة، وقطعة بنية صغيرة. نظرتُ لي الحمار باستغراب، وركز بصره على ما بيدي، ضحكتُ، قلتُ له: - هذه القطعة البنية هي التي ستجعلني أنسى استيقاظي المبكر، وأنسى تجاهلك لكلامي، وأنسى كذبة العقل!

أشاح بوجهه، تجاهلني، عاد لدفن رأسه بالطؤالة وللجرش! فركتُ الحشيشة الجديدة على سوق المُخدرات في بلادنا؛ كنتُ سأُجربها لأول مرة في ذلك اليوم؛ سخّنتها، ثم فركتها وحشوت خمسة سجائر، وأشعلتُ أول واحدة، وبعد دقائق أنهيتها، وأشعلتُ الثانية فاحمرّت عينايا، وثقلَ رأسي، وشعرتُ بأني خفيف لدرجة أنني تخيلتُ وقتها إن هبت ريح شديدة لحملتي كالريشة وقذفتني بعيداً، أما رأسي فسيظل مكانه، بانتظار عودة جسدي!

السيجارة الثانية؛ قاربتُ على الانتهاء، وفجأة؛ اقترب مني الحمار، نظف الأرض بجانبني مستخدمًا حوافره وذيله، ثم قعد على مؤخرته مثلما أقعد، وأنا أشاهد كل هذا صامتاً، ناقلاً بصري ما بين السيارة والحمار الذي بدأ بفعل أشياء غريبة؛ خمنت لحظتها؛ أنه لا بد قد استنشقت كمية مناسبة من الدخان وانسطل وفعل ما فعله! نظر إليّ الحمار شزرًا ثم سمعتُ ضحكًا، ومد رأسه صوب السيارة، ثم سمعتُ صوتًا:

- اكفني مؤونة إنهاؤها أرجوك؟

هل قالها الحمار؟ تساءلتُ، ركزتُ على فمه، كررها ثانية، لم أعقب، أخرجتها من فمي، وضعتها بفمه مشدوهُاً، سحب الأنفاس خلفها الأنفاس، والغريبة لم يسعل! وتطايرت سحبات الدخان من حولنا، وكلانا صامتين، أبلهين.

أنهى السيجارة، أمرني:

- اشعل لنا أخرى أرجوك؟

لم أعقب أيضًا، أشعلتها، أخذت أنفاسًا قليلة، ثم وضعتها بين شفثيه الغليظتين؛ فسحب أنفاسًا شديدة، كاد أن ينهي السيجارة فيها، والدخان يخرج من منخريه الذين بديا وقتها كمدخنتي عربية بطاطا!

- على مهلك يا حمار؟

صحتُ به حانقًا، مد رأسه غاضبًا، أخذتُ السيجارة، وضعتها بفي، سحبتُ نفسًا طويلًا، وأغمضتُ عياني، وأخرجته بصحبة تنهيدة عميقة.

- أنا حمار؟!

قالها لي، فتحتُ عياني، نظرتُ إليه، وجدته دامع العينين، تعجبتُ، قلتُ له:

- لا؛ أنت بني آدم!

تهلل وجهه، قال بصوت متهدج من الحزن: ما الفرق بيني وبينك؟ نظرتُ له متفحصًا، ونظرتُ إلى السيجارة:

- الآن لا يوجد فارق!

قلتها ثم ضحكتُ، حدجني، توقفتُ عن الضحك! قال غاضبًا:

- يقولون أن الحمار حباه الله عقلاً، أما الإنسان فلا يملك عقلاً،

وبماذا أفادني أنا الحمار ذاك العقل الذي يتحدثون عنه، وأنا والإنسان في مكان واحد، وفي عمل واحد، بل في حظيرة واحدة!

ونظر لي بحزن. وقتذاك؛ عجزتُ أن أجيبه، وانخرطتُ في ضحك لا إرادي، وأعطيته السجائر ليدخنها لوحده، كنتُ فقط وكلما انتهت من واحدة، أشعلتُ له الأخرى، ثم عدتُ لضحكي وأنا مستلقي

على ظهري فوق الروث.

ومن وقتذاك؛ وكلما شعرتُ بأني مُكْتَبًا مثل حالتي الآن؛ جهزتُ العدة، والقطعة البنية، وذهبتُ إلى الحظيرة، ولكن ما يدهشني حقاً أنه لا ينضم إليّ إلا بعدما أن أشعل السيجارة الثانية وأسحبُ منها عدة أنفاس؛ لربما كما خمنتُ سابقاً؛ لا بد أنه يستنشق كمية مناسبة من دخان الحشيشة حتى ينسطل ثم يفعل ما يفعله.



مسارب اللاوعي

نداء مؤذن يتسرّب إلى مسامعي...

«الصلاة خير من النوم!»

ربما كان الفجر... لا؛ هو الفجر!

منذ متى وأنا نائمة؛ هل اليوم هو الجمعة حقاً؟

هل أنا نائمة أم مُستيقظة؟

ثمة أعمال ثقيلة لأبد لي من قضائها باكراً!

لف أصابع «المحشي»: هاك نصف يوم ضائع من أجل نصف ساعة

غداء!

مُتكوماً جواري مثل فيل نافق! مُتزملاً بالألحفة كعادته.

دفعات شخيره طغّت على صوت المؤذن!

كيف أعالجه من داء الشخير هذا؟

شخير ماذا! حري بي أن أعالجه من السمنة المُتوحشة أولاً.

«طبّاخ المَحشي لايتذوقه» أنا الزوجة النحيفة وهو الزوج السمين!

حتى في المُعاشرة؛ ماعليه سوى التمدد على ظهره، وأنا أتكفل

بالقيام بما تبضّي من جلسة الجنس الشهرية!

أحاول الانسلاخ من حالة اللاوعي، طاردة بقايا نوم عالقة بجفنيّ.

تمتد يدي إلى الهاتف الخليوي فوق المنضدة جواري، وكأنها

تخترق النيران. أنظرُ إلى شاشته بعد أن أضغط زر الطاقة.

تضيّقاً حدقتاي من شدة ضوئه، فأغمض عينيّ من جديد.

لحظات وتتسرب لإدراكي صيحاته:

- الساعة الثامنة يا «مدام»، وأنتِ لم تستيقظي بعد!

هل هي الثامنة بالفعل؟

أضطلعُ بجبل صخري فوق جسدي، أجلس على السرير مُلتقطه
أنفاسي!

أصعب لحظات أواجهها في حياتي؛ هي تلك التي ما بين الاستيقاظ
والنوم! ما بين الوعي واللاوعي. ليتني أنم ولا أصحو أبداً: ما أجملها
ميتة؛ لا ألم فيها!

أشعل الإضاءة، أبحثُ عن الهاتف؛ أجده ينعم بالدفء تحت
الألحفة جواري.

اقوم بمنامتي؛ هامة بالذهاب إلى الحمام. ذلك الميعاد اليومي
المقدس! للمُقابلة وجهاً لوجه مع... وجهك، وفضلاتك!

ثم شعور بالحيوانية في مقابلتك الثانية، وثم شعور بالصدمة في
الأولى: إنك لازلتُ حياً!

في ضوء التلفاز؛ ينطرح زوجي فوق الأريكة بمنامته البيضاء؛ مثل
سلاسل جبال جليدية في المساء، يشاهد فيلماً عربياً ساخراً دون
ألوان! مُتطائرة ضحكاته الباهتة من حوله.

أتجاهله مُتثائباً، ومواصلة خطواتي الثقيلة صوب الحمام. أتقابل
بوجهي - من جديد - في المرأة. ثم بسبابتي أزيل الرمص من مآق عيني
مُتجهمة.

قبل الزواج لا يتوقع الرجال بأن المرأة عند استيقاظها تكن أشبه
«بمسوخ فرانكنشتين!» ولكن بعد الزواج، وبسبب العادة فقط؛
يتألف المسخان بعد صدمة اكتشاف التشابه.

أنزل ثيابي، وأقعد لأفرغ فضلات أمعائي. لحظات وأشتم الرائحة التي ألفتها، والتي لا أمتلك جرأة القول بأنها «قدرة».
لو لم أخبر بأن «البشر في الجنة لا يتغوطون» لما صدقت بوجود الجنة.

بينما أغسل وجهي، ثم أسناني، تتسرب لمسامعي ضحكات زوجي التي علت وتيرتها، وصارت مُذيلةً بشخير عال التردد!
انقضى من عمر زواجنا؛ ست سنوات؛ لم ننجب خلالها سوى طفلة في الخامسة من عمرها. تتم في غرفتها، لا تستيقظ إلا في العاشرة، جراء سهرها أمام التلفاز، لمشاهدة أفلام الرسوم المتحركة، أو اللعب بدمياتها والتغني برسوماتها، أو آداء واجبات الحضانة: ليتني في مثل سنك حبيبتي، أقلها سأرحم من طبخة المَحشي هذه!
أتصعب عرفاً وأنا أنتقل من تجهيز الأرز، إلى سلق ورق الكرنب، ثم لفه، وأخيراً صَفه في الإناء مُتخذاً شكل دوائر مُتداخلة، بعد سكب قليل من الزيت أسفله حتى لا يحترق. وأخيراً: أتركه فوق النار المُشتعلة لينضج.

ثم أجذب كرسيّاً خشبياً إلى المطبخ، وأتهالك فوقه، لأغفو قليلاً جراء الإرهاق!

- الساعة الثامنة يا «مدام»، وأنتِ لم تستيقظي بعد!

تفزعني صرخاته! أنتفضُ مُستيقظة بقسمات وجه أشعر بأنها تبادلت مواضعها خفاءً: العين موضع الفم، والفم موضع الانف! وعبثاً جعلتُ أحرّك يدي للبحث عن هاتفي، ثوان وأجده مُختبئاً بطيَّات الغطاء جوارِي! أنظرُ إلى ساعته، أجدها الثامنة ودقيقتين.

أزفر مُتكدرةً. يصرب باب الغرفة؛ أجبر عيناَي المزرورتان على

اكتشاف الآت!

أجدها صغيرتي بشعرها المنكوش ، مثل شبح في مجال ضوء
الصالة المُتسلل من فتحة الباب! تبتسم لي قائلة:

- أمي... لقد تأخرنا على طهي «المحشي»؟ إن أبي يقول لك: إن

عصافير بطنه تُغرّد!

أصحح لها مُتهكّمة:

- تقصدين؛ أغربة بطنه تتعق!



اللحم والمش

واقفًا تحت شجرة نبق عظيمة مورفة، تنتصب على قارعة طريق ترابية صفراء، ومن حولها حقول القمح، الذي كاد أن يلفظ سنبلاته، ناظرًا لأعلى الشجرة - طفل بالسابعة من عمره. يبدو مشعث الشعر، ذا بشرة قمحية، وجسد هزيل، يرتدي جلبابًا قصيرًا مهترئًا، لا يبين لونه من الأدران. - أريدُ بعض من ثمرات نبق، أنا جوعان يا أخي؟

قالها رافعًا يديه إلى أعلى، لامعتان عيناه السوداوين الواسعين تكادا تطفران بدمعهما. نادى تارة أخرى:

- سعد؛ أنت جشع يا أخي، لو أنك تحب النبي اسقط لي أقلها خمس ثمرات، إني أتضور جوعًا يا أخي؟

سمع ضحكة أخيه منزلقة إليه من أعلى الشجرة، فانفجر بالبكاء، وأخذ يدور حول نفسه، باحثًا في الأرض بعينيه عن شيء. لحظات ثم التقط حجرًا صغيرًا، وتعالَت شهقاته، وسالا خيطا مخاط من منخريه إلى فمه. وقف بجوار الجذع، رفع بصره لأعلى، وطرح يده بالحجر خلف رأسه، ثم صاح:

- والله لأبطحنك؟

صاح أخيه من أعلى بلهجة ساخرة:

- سعيد... أيها العبيط؛ الشوك أدمانى، انتظر حتى أجمع لنا الكثير من الثمر في حجري، ثم أنزل ونأكله سوى؟

- طيب، سأنتظر فوق المجرى المائي بعدما أغسل وجهي، وإن كنت تكذب عليّ لأقولن لأملك ولتسلطن عليك «الكلب الجائع» ليأكلن مؤخرتك النتنة.

أسقط سعيد الحجر أرضاً ، دلف تجاه مجرى مائي صغير محاذ
إلى الطريق بالجهة الأخرى ومرتفعاً عنه قليلاً ، ومن خلفه غير بعيد
شجرة النبق.

غسل وجهه ، قعد على حافة المجرى فوق النجيل ، كشف عن
ساقيه فبدتا متسختان ، وقدميه حافيتان متشققتان ، وضعهما بالماء
وشهق مُبتسماً.

راح يتأمل حقول القمح الخضراء أمامه في تماوجها وتراقصها
مع نسيمات الهواء ، والنخيل السامق المتناثر بين الحقول كنساء
طويلات ناكشات شعورهن بين السحاب ، ومنبهراً بالزراير الشاقة
السماء في أسراب مكونة أرقام وحروف يجهلها!

لم ينضم إلى المدرسة بعد ، حينما سأل أمه عن ميعاد التحاقه
بالمدرسة ، لَمَّا رأى أقرنائهم جميعاً يذهبون كل صباح إليها ،
ويلبسون الجديد ، وباتت لدى كل واحد منهم حقيبة بها كتب
وكراريس وأقلام وألوان _ ارتسمت على تقاسيمها السمراء ابتسامة
زائفة ثم قالت: «سُنلُحك بالمدرسة في العام القادم ، فالأموال التي
يُرسلها أبوك لن تكفي لتعليمكما أنتما الاثنان معاً ، أما العام القادم
فسيُزيد أبوك ما يرسله من أموال ، وستلتحق بالمدرسة إن شاء الله».
ومرّت سنتين ، ولم يُزد أبيه فيما يُرسله من أموال ، ولم ينضم إلى
المدرسة ، وما يزل يجهل تلك الأرقام والحروف التي تُشكلها أسراب
الطيور بالسماء.

فجأة؛ سَقَطَتْ كف سعد أخيه على كتفه ، انْتَقَضَ من قعدته ،
التَفَّت إليه قائلاً:

- أفرعتني يا جحش!؟

قهقه سعد ، ثم بصق نواة الثمرة بالمجرى. بدا طفلاً بالعاشرة
من عمره ، بنفس ملامح أخيه الصغير ، ولكن بعينين ماكرتين ،

مرتدياً جلباباً قصيراً مهلهلاً، حافي القدمين، رابطاً حجره حول
خصره صانعاً بقجة لتجميع الثمر.

قعد بجوار أخيه واضعاً قدميه بالماء، ثم وضع بقجة حجره
بينهما، فظهرتا ساقيه الصدثتين، ولباسه الداخلي المُخرق. فك
عقدة جلبابه ليُخرج الثمر وسعيد مسلطاً بصره إلى حجره بشغف.
فتحه، وبدءا يلتقطان الثمر الأصفر والأخضر ويأكلانه بنهم، قال
سعد وهو يمضغ:

- سأخبرك سرّاً، ولكن اقسم لي أولاً أنك لن تشي بي عند أمك؟

قال سعيد وهو يمضغ:

- والله لن أقول! ولكن خبرني أولاً: أين يختبئ الكلب الجائع
الذي تتحدّث عنه القرية، ويخيفوننا به؟

- في كل مرة تقسم ولمّا نعود إلى الدار وتعطيك أمك بيضةً
لتشتر بها الحلوى الطوفي وشطفة السمسمية من الدكان تشي بي!
- اسمع؛ إن أنت جلبت لي ثمر النبق كل يوم أعدك ألاّ أشي بك
مجدداً؟

ضحك سعد، ثم قال بخبث:

- لقد لعبتُ مع «فوزية» بنت الجيران بالأمس لعبة جميلة.

قطب سعيد حاجبيه، بصق النواة، قال:

- أنا أَلعب معها كثيراً، ما الجديد يا فالح؟

ثم عاد لأكل الثمر، ضحك سعد ضحكة ساخرة، ثم قال
مبتسماً:

- أنت تلعب استغماية، كهرباء، مسأكة الملك، ثبت صنم،
تلعب لقيفة بالكرة الشراب؛ إنما أنا لعبتُ لعبةً أجمل بكثير؛ أنت
صغير لا تعرفها، وغير ذلك أنت لم تُختنّ بعد؛ لذا لن تستطع لعبها.

إِحْمَرَ وَجْهَ سَعِيدٍ ، قَالَ بَغْضَبٍ :

- لَنْ أُخْتَنَ أَبَدًا !

- أُمِّي قَالَتْ لِي لَمَّا يَرْسَلُ أَبُوكَ الْقَرَشِيْنَ مِنَ السُّعُوْدِيَّةِ سُنُّرْسَلِ
إِلَى الْمُزَيْنِ وَسُنُّخْتِكَ .

قَالَهَا سَعْدٌ ثَمَ انْفَجَرَ ضَاحِكًا ، فَحَدَّجَهُ سَعِيدٌ مَمْتَعُضًا :

- وَاللَّهِ لَنْ أُخْتَنَ وَسْتَرَى ، أُمُّكَ تَمْرَحُ ؛ فَقَدْ سَبَقَ وَقَالَتْ أَنَّهَا

سُتَلْحِقُنِي بِالْمَدْرَسَةِ وَلَمْ تَفْعَلِ !

بَصَقَ سَعْدُ النِّوَاةَ ، اقْتَرَبَ مِنْ وَجْهِ أَخِيهِ ، قَالَ هَامِسًا :

- دَعَهُمْ يَخْتَنُوكَ لِتَلْعَبَ تِلْكَ اللَّعْبَةَ الْجَمِيلَةَ ؟

تَعْجَبَ سَعِيدٌ ، قَالَ بِشَغْفٍ :

- مَا هَذِهِ اللَّعْبَةُ ؟

انْتَهَى الثَّمَرُ ، وَقَفَ سَعْدٌ وَعَيْنَا سَعِيدٍ مُعْلَقَتَانِ بِهِ ، فَقَامَ بَغْسَلِ

يَدَيْهِ ، ثَمَ اغْتَرَفَ مِنَ الْمَاءِ غُرْفَةً بِيَدَيْهِ وَشَرِبَ ، وَلَمَّا انْتَهَى ؛ نَظَرَ لِأَخِيهِ
مَجِيْبًا عَلَيْهِ بِصَحْبَةِ ابْتِسَامَتِهِ الْمَاكِرَةِ :

- عَرِيْسٌ وَعُرُوسٌ ؟

جَحْظَتَا عَيْنَا سَعِيدٍ وَشَهَقَ شَهْقَةً كَادَ أَنْ يَبْتَلِعَ سَعْدًا فِيهَا وَأَرْدَفَ

شَارِدًا :

- يَا قَلِيلَ الْأَدَبِ ؟

قَهَقَهُ سَعْدٌ ، وَعَادَ لِقَعْدَتِهِ ، ثَمَ تَذَكَّرَ شَيْئًا ، فَقَالَ مَشِيْحًا بِوَجْهِهِ

بَعِيدًا عَنْ سَعِيدٍ :

- أَتَعْرِفُ ؛ لَنْ نَأْكُلَ الْمِشُّ الْيَوْمَ !

قَالَ سَعِيدٌ مَتَعَجِبًا :

- لَا يُوْجَدُ غَيْرَ الْمِشُّ عَلَى الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ ، أَمَا الْعَصِيْدَةُ فَهِيَ

بالصباح، فماذا سنأكل على العشاء الليلة؟ أعصيدة أم أن أمك
ستسلق لنا بيضاً رغم أن البيض كل يوم جمعة، أم ماذا؟ حيرتني
ياسعد!

قال سعد مبتسماً وهأزاً رأسه يمناً ويسرة:

- لحم، أرز، فاصولياء...

شهو سعيد مجدداً، وفغر فاه، نظر له سعد، أتم:

- بتاؤ طري، ورغمان شمسية منفتحة.

خرج سعيد عن صمته، وقف ممتعضاً، تحرك باحثاً عن حجر،
أحضره بيده وعاد لقعدته بجوار سعد مقطباً حاجبيه، وقالباً شفتيه،
ورافعاً يده بالحجر خلف رأسه. ضحك سعد قائلاً:

- أما عندك صبر يا عبيط، سأقول لك عن كل شيء، لكن

طوُح الحجر بعيداً؟

طوُحه سائلاً:

- كيف سنأكل اللحم؟ لأنني مللتُ أكل دود المش. أمك دائماً

تقول لنا: «كلوا الدود قبل أن يأكلكم؟» لا أفهم كيف سيأكلنا؛

هل سنُدفن بعد موتنا في بلاص مش؟

- يا عبيط لن نُدفن في بلاص، البلاص صغير الحجم لا يساعنا،

سنُدفن في زير ضخم به دود بلا مش.

اشمأزت تقاسيم سعيد، قال مُتأففاً:

- لا أريد أن أُدفن مع الدود، وسأظل أكل المش بدوده حتى ينتهي

الدود من الدنيا، ولكن قل لي: كيف سنأكل اللحم؟

- سنذهب الليلة إلى عرس ابن شيخ البلد، وسنغطف في الطبخ

غطاً، وسأعلمك في طريق عودتنا: أين يختبئ الكلب الجائع.

ضحك سعيد، حرك قدميه بالماء فرحاً، فتناثرت قطرات الماء،

ثم توقف فجأة ، وقال بشرود :

- أمك... لا بد أن ندخل لعشاء هذا العرس أكثر من مرة ، لنحتفظ بقطعة لحم لأمك في جيوبنا ، وترجاها أن تدفنا بعد موتنا في زير به لحم ، حتى لا يأكلنا الدود؟

ثم صمت لحظات ، وفجأة تذكر شيئاً :

- لماذا يغضبون الكبار لَمَا يلعب الصغار لعبة «عريس وعروس» ويفرحون بالكبار إذا ما لعبوها ، بل ويجمعون الناس ويطبخون لهم اللحم فرحين بذلك؟

ضحك سعد ، وضربه على ظهره صائحاً :

- أسكت يا قليل الأدب.



اختبأت الشمس -متألفة- خلف أكمة النخيل خوفاً من الحسد. اتخذ الشفق مكانه مثل حائط صد أمامها ، وهدأت القرية. ذهب الأخوان إلى العرس ركضاً بين حقول القمح والبرسيم ، بينما الضباب كان يقطرهما مدثراً الطرقات والحقول بدخانه الأزرق الباهت ، المُشبع بقطرات الندى.

كان العرس مُقام بساحة كبيرة تتعدى الفدان؛ سُرادق كبير ، ومعازيم من القرية والقرى المجاورة ، مزدانين بجلابيبهم الناصعة ، وشيلانهم البيضاء ، يقعدون على الدكك ، ويُدار عليهم بالشاي ، والدخان من قبل أصحاب العرس. والطبّال بفرقتة الضاربة بالطبل والمزمار تُرقص من لا يعرف الرقص ، والسلامات تُرسل عبر اللاقط إلى مكبرات الصوت على لسان مُغني الفرقة ، بأسماء كبار العائلات ، فيتردد صداها بأرجاء القرية ، وتُبرز بصُحبتها ورقات العشرة والعشرين والخمسين والمائة جنيه.

فيأخذها المُغني، ويشدو بالموال المطلوب، وينزل الطالب إلى الساحة بعصاه الخيزران ليتداعب مع الدرداب برشاقة.

وغير بعيد يقبع مبنى من الطوب الحجري الأبيض، مسقوف بالبوص، ومن حوله الرجال المُتأنقين، مابين الداخل والخارج منه. والأطفال ذوي الثياب المهلهلة، والأجسام الهزيلة، يتصايحون في جلبة، ما بين كروفر صوب الباب.

- لقد دخلت من قبل يا بن الكلب؟!

صرخ بها رجل طويل القامة، ضخم النسيج، يقف أمام باب المنظرة الكبيرة بجلبابه الفضفاض كالعامود، حيث وقت العشاء في العرس؛ ينظم دخول المعازيم، ويمنع الأطفال النزقين من الدخول مرات عدة.

- والله لم أدخل بعد صدقتي ياعم!

قالها سعيد وهو ينظر إلى أعلى من حيث يسقط إليه الصوت.

ضجر الرجل، زمجر، انحنى، قبض على خصره بكفيه الضخمتين؛ رفعه إلى أعلى، جحظت عينا سعيد لمّا رأى ملامح الرجل: وجه مُفلطح، وأنف معقوف، وعينان حمراوان واسعتان. دخل الرجل به إلى المنظرة، أقعده إلى جوار طبلية بالصفوف المتراسة؛ حيث الأطفال سباحون في الأطباق، ثم خرج.

ما إن قعد ونظر جواره، حتى وجد أخيه سعد يضحك ساخرًا منه،

قال سعيد ضجرًا:

- هذه مرّتك الرابعة، وأنا حاربت كي أدخل مرّتي الثانية؛ كيف

تفعل ذلك دون أن يلحظك ذكر النخل المنزوع بالخارج؟

حاول سعد الضحك ولكن فمه محشو بالطعام، وما إن ابتلع ما

بفيه حتى قال:

- كل يا عبيط ولمّا يُفرق اللحم خبيّ نصيبك بعد أن تلفه بالخبز لأمك؟

مَسَكَ سعيد طبق الملوخية وسكبه في طبق الفاصولياء، حدجه جميع من حول الطبلية من أطفال في مثل سنه؛ لاحظهم، فوضَّح:

- بدلاً من لقمتين تصير لقمة واحدة، ولأنُضِيع الوقت حتى لا يأتي اللحم فجأة، ويفرقونه ومن ثم يطردوننا جوعى.

التَقَّتْ الأطفال إلى بعضهم، ضحكوا ثم واصلوا تناول الطعام بنهم. همس سعد في أذن سعيد:

- إن أردت أن تدخل مرة ثالثة فتحين وقت دخول جماعة من الرجال وانسل من بين جلابيهم الفضفاضة، واحرص ألا يلاحظك ذكر النخل المنزرع بالخارج؟



قفلا الأخوان عائدين من العُرس، وقد إسودَّ الليل، وانتشرت النجوم بسمائه تلمع، وتناثرت الأصوات بالقرية؛ عواء كلاب، ونقيق ضفادع، وصرير جراد، وسجال الأخوان؛ سلكا طريقاً مظلماً تحيطه النخلات السامقات من الجانبين، وتلفه سحابات الضباب من أمامهم ومن خلفهم.

- كم لديك من قطع اللحم؟

سأل سعد، فأجابه سعيد باقتضاب:

- لديّ قطعتين.

قال سعد متهكماً:

- أنا لدي ثلاثة قطع؛ حاول أن تحافظ عليهما حتى نمر من جوار

الكلب الجائع بأمان؟

فزع سعيد والتصق سريعاً بأخيه وصار يتلفت حوله كالمجنون،

وقال بصوت تهدج رعباً:

- الكلب الجائع! أين هو يا أخي؛ حرام عليك أين هو؟ هل يختبئ في هذا الطريق أمامنا؟

أجابه سعد ساخرًا:

- ليس أمامنا بل على مقربة منا!

شئق سعيد مرتعدًا:

- إذا هيا نجري بسرعة وننفذ بلحمننا ولحم أمك؟

وظل يبكي، وفجأة؛ زمجر كلب خلف الضباب أمامهم؛ صمتا، وقفا مبلسين، اخترق الكلب الضباب، قفز صوبهم، أخذ يدور حولهم لاهثًا شامًا ثيابهما، كان كلبًا أسود اللون، ضخم الجثة، غليظ الرأس.

اصطكت أسنان سعيد رعبًا، ظلا صامتان، اقترب الكلب لاهثًا يشتم جيوبهم حيث قطع اللحم، ولمَّا وجدها، مزق جيب سعيد بأنيابه؛ فبال سعيد على نفسه، ثم أخرج اللحم في فمه وأكله سريعًا وترك الخبز. تحرك صوب سعد، مزق جيبيه بأنيابه، ظل سعدًا يهتز كاتمًا ضحكات كاد أن ينفجر بها. أخرج الكلب اللحم من جيبيه والتهمه وترك الخبز، ولمَّا لم يعثر الكلب على لحم آخر بحوزتهم؛ تركهم ومرق بين الضباب.

انفجر سعد ضاحكًا، وانفجر سعيد باكياً، سأله سعد:

- ما يبكيك يامبلل الساقين؟

حدجه غاضبًا، ثم صاح به:

- كنت أريد أن أعطي أمي اللحم وأترجاها أن تدفني بعد موتي في زير به لحم، ولكن بعد فقدان اللحم فمؤكد أنها ستدفني في بلاص مش بدوده.



الخِضْر

حادثة كان يتغنّى بها كثيراً!

في المقهى، وفي جلسات السمر، وحتى بين خلجات نفسه:
«قديماً؛ عندما سُئِلَ «الخِضْر» من طرف النبي «موسى»: «أقتلت
نفساً زكية بغير نفس؟» أعلمه الخضر بأن هناك حكمة إلهية
وتأويل لن يعرفه إلا إذا تحلّى بالصبر ورافقه في طريقه حتى النهاية».
سأله القاضي:

- ما هي الدوافع التي جعلتك تقتل زوجك المدعوة «نجاة الغول»
عمداً؟

من خلف القضبان الحديدية، ومرتدياً بذلة السجن البيضاء؛
كان «مجدي حسانين» الشهير في منطقة «إمبابة» بلقب «الخضر»
ظاهراً للعيان أنه ذا جسد نحيف، ورأس رفيع حل الشيب بفوديه، أما
العمر فربما قد ولج عقده الخامس منذ عهد قريب.

بنظرات ساخرة تطلّع إلى القاضي ذو التقاسيم الهادئة، والبدلة
الحريرية الرمادية، والمستشارين ذوي الأجساد الممتلئة، وممثل
النيابة الضجر، ثم شرد لحظات، متطلعاً خلالها إلى أعلى بعينه
الجاحظتين، اللتين تقوّس التورم والسواد أسفلهما، ثم قال فجأة
بصوت خاشع مستسلم:

- قتلتها لحكمة؛ لا يعلمها إلا الله!

ثم عاد لشروده من جديد، وسرت مهمة بين الحضور في القاعة،
قَبْض القاضي على إثرها بالمطرقة، وراح يدق بها فوق المكتب
أمامه؛ طالباً منهم الصمت.

مجدي؛ لم تكن تلك مرّته الأولى التي يُجب فيها بغموض، ولا الثانية؛ ديدنه كان ارتكاب الأفعال التي ربما يراها غيره خاطئة، واتخاذ القرارات غير المتوقعة، ثم اتهام القدر والنصيب، وتلك الحكمة الكامنة؛ التي هي دائماً: «لا يعلمها إلا الله». في كل مرة كان ينتظر وحياً ليؤول له أفعاله، وعبثاً لا يجد سوى التماذي فيها. قديماً؛ هجر أبيه قريته، كان طفلاً حينذاك، لم يتخط العشرة أعوام؛ كانوا في القطار؛ أبوه وأمه وأخيه الصغير. وقتذاك؛ سأل أبيه بغتة:

- لماذا تركنا دارنا في القرية يا أبي، وجيراننا وأصحابنا، ونتجه إلى مصر التي لا نعرف فيها أحداً؟

كان أبيه الفلاح البسيط، ذو الجلباب الفضفاض والطاوية المتآكلة «حسانين أبو محروس» الجالس فوق المقعد ومن حوله عائلته جالسين -يركز في سؤال طفله الجالس أمامه بابتسامة ساخرة؛ ورثها مجدي عنه فيما بعد، ويتطاير دخان التبغ من فاه إلى أعلى موازياً لألسنة البخار المتصاعدة من كوب الشاي الساخن في يده، والمتشابكة مع دخان لفاقة التبغ بين أصابعه. كان صرير دواليب القطار وقرقعة عرباته يؤلفان خلفية صوتية رتيبة، عندما أجابه أبوه فجأة:

- فعلت ذلك لحكمة لا يعلمها إلا الله!

ثم أشاح بوجهه عنه. ذهل مجدي، وجحظت عيناه شاردًا؛ لربما كان أباه من المباركين العارفين؛ أولياء الله الصالحين، ولما يصلون إلى مصر سيجدون الخير الوفير. زمّت أمه شفيتها وأدارتهما إلى جانب وجهها ممتعضة، ثم صوّبت نظرها خارج زجاج النافذة تتأمل اللاشيء، وتفكر في ذلك المثل الذي يقول: «خلنا وراء الكذاب حتى باب الدار».

حسانين؛ لم تكن -أيضاً- تلك مرّته الأولى التي يُجب فيها بغموض ولا الثانية؛ ديدنه كان اتخاذ القرارات المفاجئة، وتجشم مالا طاقة له من الأفعال والأعمال، ثم ترك الحكمة الكامنة في علم الغيب؛ لتسد له بقية الثغرات. في كل مرة كان ينتظر وحيًا ليكشف له الستار عن التأويل الذي ينتظره، وعبثًا لا يجد سوى التماذي في قراراته وأفعاله.

كلما تذكر مجدي ذلك أيقن أن تلك البركات ورثها من أبيه العارف؛ رغم أنهم لم يجدوا في مصر إلا الشقاء! كانوا يبيتون ليلهم في الطرقات، ويعملون نهارهم جميعاً في أي شيء: حمّالين، عتّالين، عمال، تجار. حتى حطّوا رحالهم آخر الأمر في منطقة إمبابة، واشتروا قطعة أرض ونصبوا عشّتهم بها، وعملوا في جمع الخرّدة.

بعدما توفيّا والديه؛ تزوّج مجدي «نجاة بنت الغول» جارته، وكان أبيها حوذي يعمل معه. يذهب إليه صباحاً، فتخرج له نجاة؛ أقلّ أخواتها جمالاً؛ تبتسم له، ثم تذهب لتصنع له ولوالدها الشاي، بينما ينتظر الخضر جالساً فوق المصطبة. يفكر في ذلك المثل: «الزوجة الجميلة؛ لك وللناس، أما القبيحة فلك لوحدها!» ويداعب شاربه مقتنعاً.

يركبان العربية ويدوران بالطرقات ماريين بالورش والبيوت لجمع أي خرّدة: ثلاثجة قديمة، تلفاز، غسّالة، مروحة. ثم يبيعون كل ذلك جملة لتجار خرّدة كبار. وقتذاك؛ سأله الغول:

- ولماذا نجاة بالذات التي تريد الزواج منها؛ لذي خمس فتيات أخريات أجمل منها بكثير؟

أجابه مبتسماً ذات الابتسامة الساخرة:

-إنها القسمة والنصيب! فلن يتزوج أي رجل زوجة غيره أبداً؛ كل رجل منا مكتوب اسم زوجته على جبينه.

أوماً الغول برأسه مؤمناً على حكيمته.

عندما رُفِعَت الجلسة للمداولة؛ جلس مجدي على المقعد خلف
القضبان بلا اكرات لأى شىء مما يحدث حوله؛ كأن من يحاكم
واحدًا غيره!

أخيه الصغير كان قد هجره بلا رجعة، يتذكر مجدي آخر مرة
رآه فيها؛ كان حازماً أمتعته، هاماً بالرحيل، سأله قائلاً: إلى أين
تشد رحالك، ولم الرحيل؟
بسخط أجاب:

- ولماذا تسأل الآن عن سبب؟

صمت مجدي مستحيًا، فأضاف أخوه مُتهكمًا:

- إنها الحكمة يا أخي: تلك هي الحكمة الكامنة في علم
الغيب؛ وأنت سيد العارفين!

ثم رحل إلى الأبد، وطأطأ مجدي رأسه. لقد كان على وشك
خُسران البركة؛ الإرث الذي خُصص له؛ الحكمة الغيبية المُبهمة،
خلف خطوات مباركة، صوب غاية هي في حد ذاتها؛ هي ذات
الحكمة المطلسة عن الجهال من البشر؛ مثل أخوه الصغير. رغم أنه
نال حُظًا من العلم بمدارس إمبابية، إلا أن ذلك العلم لم يجعله عارفًا
بقيمة الإرث المبارك! وقيمة مجدي العارف؛ حتى أنه كان يجادله
كثيرًا ويناكفه، ويهزأ من قراراته المفاجئة، وأفعاله الغامضة،
ولما لم يجد بدءًا مما ليس منه بد؛ رحل.

أصبحا وحيدين؛ مجدي وزوجته، حتى الأطفال لم ينجبوا؛ وهو
يعلم جيدًا أنهم رزق مُنع عنه لحكمة أيضًا، ورضي بذلك، وشعر أنه
ليس بساخط: سأرزق بهم في الجنة إن شاء الله. هكذا كان يعتقد.
كان يقعد بين أكوام الخردة يفكك مروحة، أو يزيل الأتربة

الدبقة عن تلفاز ، وزوجته تجلس على مصطبة بالقرب منه تتأمله
بنظرات؛ يتضايق مجدي منها ، ويحاول أن يبعدها عنه :

- اصنعي لنا كوباً من الشاي بدلاً من الحملقة فيّ بعينيك
الحمراوتين؟

حتى حانت لحظة قتله لها؛ كان يشعر آنذاك بأن يداه التي تمسك
بالسكين ليست يداه، بل أياد القدر، وهو مجرد سبب، ولا بد أن
يحدث ما يفعله الآن؛ حتمية لا يملك إزائها حتى التردد أو التفكير:
كلنا أسباب تمشي على الأرض، والمكتوب مامنه هروب. هكذا
كان يردد بصوت علا عن صراخ زوجته واستغاثاتها، حتى غرقت في
دمائها وصمت ليردد جملته هو في خشوع وسكينة...

زلزلته فجأة صيحة الحاجب:

- محكمة؟

عاد القاض إلى الجلسة؛ وفتحت لتبت في جريمة مجدي حسانين:
«حكمت المحكمة بالإعدام شنقاً على المُتهم (مجدي حسانين)
لقتله زوجته عمداً، والاعتراف بجريمته _ وإحالة أوراقه إلى السيد
مفتي الجمهورية».

صدرَ الحُكم. همّ مجدي بأن يعترض أو يسأل هيئة المحكمة
سؤالاً ما؛ ولكنه سرعان ما تراجع مردداً بغمغمة وطبيئة:

- سأصبر ولن أتعبّل كما تعجل النبي (موسى) فمعرفة الحكمة
التي لا يعلمها إلا الله باتت قريبة.



شيماء

وقتما كنا صغار؛ تمنيّا أن نكبر بفارغ الصبر...
وما كادت أن تدور بنا رحي السنين، وتحملنا فوق جمعياتها،
وتقذف بنا إلى المستقبل، لنكتشف أننا كبرنا؛ صرنا يافعين؛ حتى
ندمنا ندماً وفيراً! وتمنينا عودة أيام الطفولة.

وحدها «شيماء» التي لم تتدم! ولماذا تتدم أساساً؟ هي تعتقد بل
تؤمن بأن الذين يندمون هم فقط ضعاف الإرادة، وهم أيضاً الجبناء:
ولا جناء غيرهم.

ولم لا وقد أوتيت من كل شيء قدراً ليس بهين؛ وحده الجمال
الذي طمعت في ثلاثة أرباعه؛ وجهها أبيض مشوب بحمرة عنابية،
وعيناها واسعتان سوداوان كحيلتان كعينا «نفرتيتي» وشفاتها
متورمتان بورم جذاب. جسدها منحوت من حجر رخامي صلد، أما
قامتها فمعتدلة اعتدالاً محيّر.

اجتازت الثلاثين من العمر. ملابسها دائماً ضيقة، وشفافة؛
تمتلك بروزات وتضاريس دائماً ما تجعل جميع الذكور تنتبه إلى
طُغيان وجودها، حتى وإن كان أحدهم رضيعاً فتجده يصرخ ماداً
يديه صوبها، ولا يكف عن الصراخ ويهدأ إلا إذا حملته فوق نهدبها
الضخمين، وربتت عليه بحنان؛ وقتها يتسم ببله وهو يتأملها جاحظاً!
حتى الإناث، ينتبهن لها، مُتقدات بنار الغيرة، والحسرة على
شحومهن المتدللية من أعطافهن، وقصرهن ونمشهن، وجفافهن،
وضآلة تضاريسهن، فيتهكمن على هيئتها، وعيونهن تلمع بالحسد
متمتمات: نفخ... سيليكون!

أو مُصدرات حكمهن القاطع عن مصيرها : سافرة مآلها جهنم
وبئس المصير. تتفهم جيداً أن: القبيحات هن من يقلن ذلك. ولكنها
مقتنعة بقاعدة ما : «إن كانت هي من تشبهه في جمالها الحور ستدخل
الجحيم فلمن خلقت الجنة؟!»

ومادام لكل مولود حظ من اسمه؛ ف«شيماء» لم يكن اسم فقط
بل كان صفة، فليس كل ما تمتلكه جسد جميل فقط، بل مثقفة
وأوتيت عقلاً فائق الذكاء أيضاً، فهي تؤمن بعدة مبادئ؛ أهمها:
إن المرأة تساوي الرجل، وأنها ليست سلعة للجنس والمتعة، وليست
ناقصة بل هي كائن مكتمل خلق حرّاً.

في الحافلة؛ كانت واقفة بين الزحام، ثم وقف لها شاب ثلاثيني
لتجلس مكانه، ولكنها نهرتة:

- لن أجلس! شكراً لك أستطيع الوقوف مثلكم، لا فرق بيني
وبينكم، المرأة مثلها مثل الرجل، ليست أنثى ضعيفة منكسرة
كي تعطف عليها حضرتك بمقعد، وليست أداة جنس شهوانية كي
تحملق إليها هكذا؟ بل ولدت حرة مثلك.

كان الشاب يحملق متعجباً من كلامها الغريب ليس إلا، ولكنه
نفذ رأسه من كلماتها السابقة فتساقطت كلمة إثر كلمة، ثم
قال ضاحكاً:

- إن كنتِ ترين نفسك حرة، ورجل مثلي مثلك، فلماذا أنتِ
غاضبة من نظرتي إليك؟ بيد أنكِ أنتِ من تعتبرين نفسك «أداة جنس».
وإن كنتِ حرة مثلي فبالأحرى أنا حر أيضاً أنظر أنى شئت، فلا
تحاسبيني إذن «يا مدام».

امتعضت صائحة:

- آنسة لو سمحت؟

فضحك الشاب وبعض من كانوا حوله يتابعون المناظرة الساخنة
_ ضحكات ساخرة، فأشاحت بوجهها عنهم متممة: ذكور همج
متخلفون. في هذا اليوم آلمتها «الدوالي» التي تشعبت في قدمها من
كثرة الوقوف، لكنها كانت صامدة لا تبالى.

ربما كلفتها مبادئها هذه هروب العرسان منها، ولكنها لا
تستسلم أبداً، فالزواج بالنسبة لها شيء ضد مبادئها، فجملتها
الشهيرة التي تفحم بها أي سائل أو سائلة عن تأخر زواجها: «الزواج
في مجتمعنا عبودية تتنافى مع الحرية التي اقتتصتها بمولدي» -
حفظها جميع من حولها عن ظهر قلب.

تتأمل النساء؛ ممن هن في سنها، يحملن أطفالهن الرضع سعيدات،
ويمشين بجوار أزواجهن في سلام، يتضحكان يتداعبان، يجرآن
أطفالهم الكبار خلفهم فتتمم هي بحنق: بلهات خانعات! لماذا لا
يحملون عنهن الأطفال؟ ألا يكفي أنهن حملوهن تسعة أشهر في
بطونهن؟!

دائماً ما تسألها أمها:

- أألن تستقرين في بيت ويصبح لك زوج وأولاد؛ حتى تريحى روح
أبيك -رحمه الله- في قبره؟ الفتيات في مثل سنك لدى كل واحدة
منهن رهط من العيال.

ودائماً ما تجيب:

- إن رضى بشروطي فمرحباً به.

فتغضب أمها وتطلب العوض من الله فيها. أما الشروط التي
تشتراطها شيماء في مشروع زواجها، وفي رجل المستقبل، فهي
نفسها لا تتذكر منها سوى «الحرية» ومشتقاتها:

- لا يسأل أين سأذهب؟ ومن أين أتيت؟ ولا يقرر لي ما ألبس

وآكل، ومن أصحاب؟ وما أقول وما لا أقول؟ لا أنجب إلا طفل، وبعد عامين من الزواج، ولن أرضعه طبيعياً؛ لأحافظن على جمال جسمي، وتناسق قوامي، وإن ألغينا الإنجاب فهذا أفضل؛ لأنها غريزة حيوانية تحط من شأن المرأة، ونقطة ضعف وسقطة لها؛ تضعف من موقفها في حربها ضد الرجل.

تشعر أمها بأن ما تلاقيه من ابنتها الوحيدة؛ ذنوب يتم تطهيرها منها ببطء:

- يا بنتي وهل من سيرضى بذلك في بلادنا؛ تعتبرينه أنت رجلاً؟!
تصمت، وتفضل ألا تجيب رافة بحال أمها التي تخطت الخمسون سنة، وقلّ مجهودها البدني والذهني.

كانت تظن دائماً أن مشكلتها مع ذلك المجتمع الذكوري المتخلف، ولكنها تدرك الآن أن أمها أيضاً تفكر مثلهم؛ إذا هناك مجتمع أنثوي متخلف أيضاً عليها أن تحاربه، وتجدد فكره العقيم ليضاهي الفكر الغربي المتحضر، الذي لطالما أبهرها، وخلق لبها، وأصبحت تستقي كثيراً من مبادئها وثقافتها منه؛ بل إن ثقافتها فاقت طموح الغرب بكثير!

تدخل إلى «الفيس بوك» وتكتب سؤال:

«لماذا لا يسمح للمرأة في مجتمعاتنا بالجمع بين الأزواج مثل الرجال؟»

وتترك الأصدقاء بصفتها يتناحرون مع بعضهم البعض، ويلقونها بالإتهامات في التعليقات ولا تجب على أحد منهم! حتى أن أحدهم كتب لها: «يمكنك ممارسة ذلك بكل حرية تامة، ولكن خارج إطار الزواج؛ لأن الزواج له قواعده التي لا تتناسب ورغباتك في العهر والانحراف».

«متخلفون بحق!» كان ردها الوحيد على هذا التعليق.

آخر عريس تقدّم لها؛ قالت له قبل أن يجلس: أن اعترافه بأن المرأة تساوي الرجل؛ شرط أساسي لعوده. فاوماً موافقاً، فسمحت له، ثم أُلقت عليه وابل شروطها أياها واستفاضت في الشرح. ولما انتهت قال:

- موافق!

ذهلت شيماء وأمها، ولكنه قاطع ذهولهن بأن قال:

- ما دام لكِ شروط فأنا لي شروط أيضاً لا بد أن تبادليني الموافقة

عليها؟

فسألته بدون اكرتاث:

- ألقِ ما عندك؟

كان شاباً في الثلاثينات من عمره؛ لم تهتم بمعرفة اسمه حتى؛ يسكن بنفس منطقتهم، ولكنها لم تتحدث معه من قبل؛ وسيم، متوسط القامة، ومثاقق. ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وهو يقول:

- تدفعين معي نصف ثمن الشقة، ونعمل معاً بمرتببات متقاربة. سيلغى المهر، والمؤخر، وقائمة المضروشات، والغرامة، وزياراتي لكم في المواسم، والهدايا. وستحملين نصف تكاليف العرس، وسأتحمل أنا نصف ثمن تجهيزك. ليس لكِ ميراث، ليس لكِ...

كانت شيماء جاحظة العينين لا تصدق ما يقال: كيف غاب عنها أن تتوقعه يرد بمثل ذلك الهذي؛ فعلاً الذكور صنف «حويط»؟! كانت تتخيل نفسها - وهي جالسة - تبحث عمّن تقترض منه المال، فمعاش أبيها - رحمه الله - لا يكفي شيئاً، وإن وجدت - وهذا مستحيل - وتم الزواج، فهل ستستيقظ عند السادسة يومياً لتذهب

إلى العمل مسحوّلة لسد ديونها؟ هل ستدور مثل البقرة بالساقية! ما هذا الظلم! وما هذا الذي يقوله! أفاقت لتجده ينهي كلماته:
 - ... بهذا نحقق المساواة التي نؤمن بها سوياً.

لم يتفقوا بالطبع، ولكن تركت جلسته معهن صدعاً في إيمان شيماء بمبادئها، أخذ يتسع رويداً رويداً مع مرور الأيام. ربما تعقّد الأمر ولكن من الطرف المعادي؛ وهذا ما لم تتوقعه، وذلك مما جعلها تقرر: بلاها شقوة. أمها فرحت بما دار بينهما، رغم وجع قلبها على: ميل بخت ابنتها.

بعد شهر من ذلك؛ جهّزت الأم العشاء، ولمّا دخلت غرفة شيماء كي تخرجها ليأكل مِعاً، بعد أن نادت عليها مرتين ولم تجب؛ وجدتْها جالسة بمنامتها إلى ظهر السرير تنتحب، موارية عينها خلف كفيها، والدموع تنهمر بلا رادع! وأمامها الحاسوب المحمول مضيئاً. نظرتْ به الأم، تأملت ما يظهر على الشاشة بذهول للحظة كانت كافية كي تنتبه خلالها شيماء لوجودها! فسارعت شيماء بإنزال شاشة الحاسوب لتغلقه وقد نقأ وجهها خجلاً!

ابتسمت أمها بخبث قائلة:

- هيا لنتناول عشاءنا الآن والصبح رباح؟



الشفق الدامي

(١)

الروائح المتباينة تضغط أنفي.
الزجاج بجانبى مغلق.
يصيح أحد الركاب جواري: هلا أزحت الزجاج قليلاً إلى الخلف؟
ضوضاء تتحلق كل الأذان.
- أنا مزكوم صدقتي!
- سنختق... افتح الزجاج قليلاً... هذا غير صحي بالمرة!
تقيد إنارة الحافلة الداخلية متقطعة ثلاث مرات متتالية، فيصيح
إثرها الكمسري: الثلاث تذاكر التي ركبت من الأمام... إبعث لي
في الخلف؟
يحاول واحد الجلوس بجواري ومزاحمتي!
- مقعد واحد؛ ليس بي خاصية الانكماش صدقتي؟ لستُ حلزوناً!
أصيحُ به فيعود أدراجه بين المتشبهين بمشاجب السقف، في
طرفة الحافلة المكدّسة بهم.
عبثاً أحاول تأمل «شارع التسعين» -الواقع بالقاهرة الجديدة- من
خلف الزجاج؛ يرتطم بصري بشتى الياфطات المكتظة بالإعلانات:
«في شارع التسعين: فيلا للبيع بسعر مغري؛ (٢٥) مليون جنيهه
فقط؛ للاستفسار اتصل على...»
لا بد أن هذه الطرق عُبدت كي تزرع على جوانبها أعمدة الياфطات!

هناك طفل جميل يتاملنا مندهشاً من خلف زجاج سيارة تقودها والدته، التي بدت من خلف الزجاج ثلاثينية شقراء. وعلى بعد عشرات الأمتار أمام الحافلة؛ وفوق الرصيف؛ عجزت تتحيين الفرصة لاجتياز الطريق بأمان.

وبعيداً في الأفق شفق يبدأ في زر كشة السماء استعداداً للغروب. يدق هاتفي «النوكيا» الصغير، بنغمة كنتُ قد ضبَّطها لاستقبال الرسائل؛ أنتبه من تأملاتي؛ فأستله من جيب بنطالي «الترينج» أنظر فأجدها رسالة من شركة الاتصالات: «اشحن بـ(٥) جنيهات أو أكثر ولك (٥) دقائق هدية لنفس الشبكة وثلاثة لأي شبكة أخرى...»
أعيده إلى جيب بنطالي، ثم...

- هلاً ابتعدت قليلاً بجسدك الدبق هذا؛ رقبتي تؤلمني، لقد اتخذت وضعية برج «بيزا المائل»؛ هل تعرفه؟

رجل بجسد ضخّم متعرق. يجيبني:

- لا!

- ولا أنا!

يضحك لمزحتي ثم يستدير برأسه إلى من يلتصق بظهره صائحاً:
- مُريا أستاذ من خلفي في يومك هذا إن كنت ستتم؛ لقد أصبحتُ فوق حجر الجالس أمامي؟!!

ويُسمع نداءً ضعيفاً من مكان ما في الحافلة:

- لا بد أن نتحمّل بعضنا البعض يا جماعة؟

يتبعه نداء آخرون أسمعهم بعد أن أغلق عيناى ناشداً النوم ولو لبرهة:

- تقدّموا فالطُرقة شاغرة بالأمام...



(٢)

- حبيبي... ماذا تفعل؟

أصيح في صغيري ذو الخمسة أعوام في المقعد الخلفي -
الملتصق بزجاج نافذة السيارة متأملاً حافلة هيئة النقل العام الزرقاء،
والمارة بجوارنا على الطريق!

لا أدري ما الذي يبهره في ذلك المنظر اللزج...

- لماذا لا يمتلك كل واحد منهم سيارة مثلنا يا أمي؟!

يسألني! هو صغير لا يعي:

- حبيبي... هؤلاء فقراء.

يقلب شفتيه:

- ما معنى فقراء يا أمي؟

بماذا أجيبه؟

- حبيبي؛ هم من لا يمتلكون إلا القليل من كل شيء: المال،
السكن، حتى الذكاء!

يصمت قليلاً وكأنه يفكر فيما قلت، فأحاول الانحراف من
أمام الحافلة لأجتاز الزحام ولكني افشل.

- أريد أن أصبح فقيراً يا أمي؟

يفاجئني بسؤاله، أضحك:

- إذاً ستترك الحضانة الجميلة التي تذهب إليها يومياً، ولن
تتعلم في مدرسة لغات بل ستذهب إلى مدارس حكومية؛ مدرسوها
سيضربونك دوماً على إهمالك لواجباتك، أو لعدم حفظك لدروسك،
وستذهب إلى المدرسة مشياً على أقدامك حتى تتورم.

يصمت لحظة ثم يجيب:

- لا أريد أن تتورم قدماي، ولا أريد أن أُضرب أو أحفظ يا أمي، بل أريد أن أفهم؛ هكذا يخبروننا المدرسون في الحضانة!
الحمد لله؛ عدل صغيري عن رأيه، وانشغل باللعب في هاتفه اللوحي.

سأحاول الآن أن أجتاز الحافلة حتى أحاذي اليمين وأنطلق صوب «مدينة نصر».

زوجي ينتظرني في أحد المطاعم، سنتناقش سوياً في أمر إعلان الفيلا المعروضة للبيع بسعر مغري _ على جانب الطريق؛ أظنها فرصة حقيقية تستحق أن تُنتهز، وقد دُونت رقم هاتفهم.
وأخيراً أنجح في اجتياز الحافلة والانعطاف يميناً واستباقها بسرعة ولكن...

- من أين ظهرت تلك العجوز التي انبثقت فجأة أمام السيارة!
أصيح بأعلى صوت لدي فجأة! وأضغط بقدمي دواسة المكبح...



(٣)

سأمر الآن.

فليحدث ما يحدث؛ لا بد من المرور، وإيقاف سيارة بالجانب الآخر؛ أريد اللحاق بابنتي في المستشفى بالتجمع الأول.

لقد قلت لها ألا تأت مع زوجها المهمل إلى مصر!
حارس عقار! هو رجل إنما هي؛ بنيتي مريضة، لن تتحمل الخدمة في البيوت لدى الباشاوات.

كان يقول لي دوماً: بنتك في عينايا يا خالة.

وهل سيكلفه مرتب الألفين جنيه ليضعها في عينيه ، وهم لديهم
من الأولاد ثلاثة: لابد أنه ضغط عليها وجعلها تخدم ، وإلا ما الذي
جعلها تغيب عن الوعي وتسقط طريحة الأرض ، كما قال لي ابنها
الصغير حين هاتفتني بالأمس.

«الفيوم» ليست بعيدة؛ أنزلني السائق هنا ، ولم يدخل: سأمر الآن.
الحافلة باطأت من سرعتها ، سأتقدم ، فالسيارات بالجانب الآخر
متسدة؛ لابد أنهم ما إن يروني كبيرة في السن ، سينتظروني كي
أمر من أمامهم؛ فتوان قليلة لن تضيرهم شيئاً.

أتقدم وأعبُر من أمام الحافلة ، وما إن أبرز من أمامها إلا وأجد
سيارة فارهة تتعطف صوبي مسرعة فأتببس مكاني منذهلة.
وأزيز مكابحها المرتفع يصم أذناي كلما زحفت في اتجاهي!



(٤)

أستيقظ من غفوتي التي لم تمتد بما فيه الكفاية كي تستفيق
مداركي _ على صرخة مكابح سيارة بجوار الحافلة.
أشربُ برقبتي من النافذة محاولاً استكشاف ما يحدث.
أجدُ الشفق يقطر دمًا على الأسفلت ، فيصنع برّكًا حمراء
داكنة؛ تعكس الغروب.

غروب؛ تودّعه أشلاء امرأة عجوز.



المُغفَل

الحب بين المرأة والرجل عاطفة نقيّة؛ إن يكن مأربها الحقيقي اجتماع الأحبة بالزواج، وبناء أسرة مترابطة. وأفضل أنواع الحب؛ ذلك الحب الذي يأتي بعد الزواج مع العشرة، وتواتر الأيام؛ حيث يتعرّف كل طرف على الآخر دون حجباً: مثل حُبي لزوجتي، وحبها لي.

رغم أنني تزوجتُ والحمد لله منذ ثلاث سنوات، وأصبح لدي طفل جميل مثل أمه، إلا أنني في أواخر الأيام الماضية، اكتشفتُ أن هنالك شخص مجهول يحبني، بل يعشقني، وأنا حقيقة لا أحب سوى زوجتي؛ وتصلني منه رسائل غرامية تترى، وهدايا ثمينة، وورود جميلة لا أعرف أسمائها؛ حتى أن زوجتي كانت تضحك ملء شديقتها حينما أفرّجها على الهدايا، أو أجعلها تقرأ الرسائل، أو حينما قلتُ لها أن تشتري مزهريات لذلك الورد، كانت تقول لي:

- دعنا نتسلى به ذاك المغفل؟

كل هذا ليس غريباً، إنما الغريب أن هذا العاشق رجل! ويخاطبني في رسائله على أنني أنثى، ولكنه لا يكينني بأي اسم سوى «حبيبتي»، وكلما أرسلتُ له رسالة وحاولتُ أن أشرح له أنني رجل مثله؛ لم يكثرث وواصل سذاجته وغبائه، هو لم يكلمني أبداً، ولم أسمع صوته قط؛ إنما هي تلك الرسائل الغبية التي من كثرتها جعلتني أشك في نفسي.

حينئذ؛ وقفتُ أمام المرأة أتفحص شكلي؛ لم أجد شعراً طويلاً ناعماً مُنسداً فوق أكتافي، إنما وجدت ذلك الرأس الضخم ذو الصلع الخفيف الباديء تواء في التهام الشعر، وتلك العينان المفتوحتان

بتراح بسبب ضعف البصر خلف نظارتي الطبية ، وذلك الأنف الضخم المعقوف ، وذلك الشارب المُتهدل ، وتلك الأسنان غير المتناسقة والتي ما أن تنظر إليها حتى تحسبها هامة بمفادرة الفم ، وذاك اللغد الذي انبثق فجأة ولا أدري متى وكيف؟ وتلك القامة المتوسطة ، وذلك الكرش الذي يكاد أن يقلبني على وجهي من ضخامته كلما تحركت ، والذي يُظهر من أسفل منامتي المُشجرة أثر ذلك العز الذي درجتُ فيه ولا زلت أدرج؛ إذًا فأنا لا زلتُ رجلاً وسيماً كما كنت دائماً!

سألتُ الزملاء بالعمل؛ إن كان أحدهم وراء تلك المُغازلات ، فاستهزأوا بي ضاحكين ، والحالة هذه؛ شككتُ فيهم كلهم ، ولكن دون دليل!

زوجتي تحبني حباً حقيقياً ، ورغم ذلك أشعر بأنها بدأت تغار علي من هذا الأحقق المُعجب بأنوثتي التي لا أملكها .

ذات مرة وصلتني رسالة كالعادة ، وبعدما قرأتها ، وجدتها رقيقة ، اقشعر جلدي لها ، كان يقول فيها: «حبيبتي؛ أحمل في قلبي لك حباً إن وزعته على جوعى العالم لباتوا ليلتهم شبعي!»

، ولمَّا قرأتها زوجتي حينما كنا مُتكنئين على السرير ذات ليلة دافئة؛ ضحكتُ كثيراً ، وقالت:

- لربما يعمل في «بنك الطعام»!

واندلقنا في الضحك اللاإرادي حتى غرقنا ، وفجأة؛ قالت زوجتي الجميلة:

- مارأيك في أن نداعبه ونلاعبه بنفس أسلوبه؟

عجبتني الفكرة ، وأردتُ معرفة تفاصيل أكثر ، فسألتها:

- كيف؟

ضَيِّقَتْ عيناها ، وقالت بدهاء :
 - لَمَّا يُرسل لك رسالة حب جميلة ، تُرسل له رسالة حب أجمل منها
 دون أن تُحقق له مُرادَه؛ إن أراد مقابلتك فلا تقابله ، إن أراد صورتك
 فلا تُرسلها؛ فقط داعبه وماطله؟
 - مؤكّد لن أقابله ولن أُرسل له صوري! ولكن ما جدوى تلك
 الحيلة المُتعبة؟

- سيمَل رويداً رويداً ، وستنقطع رسائله يوماً ما .
 صمّتُ هنيهة؛ وحمدتُ الله الذي رزقني بزوجة ذكية ، تقف بجاني
 في كل مُشكلة صغيرة كانت أو كبيرة؛ تلك هي المُشاركة ،
 وذلك هو التكامل والمساواة؛ لذلك ماندمتُ أبداً على زواجي منها
 ودائماً أدعوا لأمي التي عرّفتني بها ، واختارتها لي. ابتسمتُ قائلاً:
 - رائعة فكرتكِ زوجتي الحبيبة؛ ولكني لا أعرف كيف تُكتب
 رسائل الحب المُلهية تلك!
 - أنا سأساعدك.

- وهل تعرفين كيف تُكتب؟!
 - بالطبع يا حبيبي ، فكيف أكون زوجتك ، ولا أعرف ما هو
 الحب؟ ولا أعرف كيف أكتب رسالة حب؟! أنت مُلهمي صدقتي.
 خجلتُ حينها من إطراءاتها الحُلوة في حقي ، ومنذ ذلك الوقت؛ وأصبحتُ
 أترك الهاتف لزوجتي كلما أتتني رسائله ، وهي مع نفسها؛ تتخيلني أمامها
 إن لم أكن معها ، أو تنظر في عيناها إن كنت معها ، وتتفنن في كتابة
 رسالة غرامية ، وأحياناً تطلب منه الهدايا ، والمُغفل يُرسلها ، وأنا كلما
 أتت هدية ضحكت ضحكاً حتى أصابني الفواق المُتواتر ، أما زوجتي
 فتأخذ الهدايا سعيدة ، لأنها وجدت المُغفل الذي يُحضر لها كل ما تتمناه
 بالمجان ودون أن تُكلف نفسها عناء الذهاب والإياب لشرائه.

ذات مرة أُرسل صورته؛ كان شاباً أغيّداً ، ومُبالغاً فيه من شباب
 هذه الأيام؛ يرتدي ثياباً شبابية ضيقة ، نحيف الجسم؛ واضح أنه من

عائلة فقيرة يُكملون عشاءهم نوماً ، لا لحية في وجهه ولا شارب؛
أقرب إلى النساء في هيئته من الرجال ، حتى عندما أريتها لزوجتي
ظلت مشدوهة من تفاهة شكله ، ونحول جسمه ، وتقاسيمه التي
أقرب إلى تقاسيم زوجتي من تقاسيم الرجال.

ومنذ ذلك الحين ، ومنذ إرساله تلك الصورة المضحكة ، وقد
لاحظتُ انخفاض وتيرة رسائله ، حتى توقفت تماماً؛ حينئذٍ حمدتُ
الله ، وتأكدتُ أن الفضل كله يعد لزوجتي ولأفكارها الجهنمية.

بالأمس عدتُ من العمل مبكراً؛ لم أجد زوجتي بالبيت ، ولم
أجد الطفل أيضاً ، وبعد أن أخذتُ دُشاً ساخناً؛ خرجت وارتصت بها ،
فوجدتُ هاتفها مغلق؛ خمنتُ أنها عند أمها ، أو ذهبت لتشتري شيئاً
بصحبة صديقة ما ، وقد فرغت بطارية هاتفها؛ إذ لا بد أن نلتمس
لبعضنا الأعدار ، وإلا توقفت المراكب السائرة. الحياة ليست سفينة
قوامها ربان ومسافرون؛ إنما بالحياة كلنا مسافرون.

نمتُ فوق الأريكة أمام التلفاز؛ وقد كنتُ أتابع أحد برامج
الطهي ، وفوق حجري طبق من العنب كنتُ أزجي به الوقت.

سمعتُ طقطقات حركة المُفتاح أثناء معالجة الباب ، ثم دخلت
زوجتي بدون الطفل ، نظرت لها فوجدتها سعيدة مُبتسمة وببيدها
حقائب قماشية وبلاستيكية كثيرة؛ عليها أسماء محلات ملابس
وأحذية مُختلفة؛ وضعتهم فوق المنضدة. بدت مُتأنقة كعادتها؛
ترتدي بنطالها الضيق ، وتبشرتها الطويل ، وقد ضاع العطر من
ثيابها ، وشعرها مموج فوق كتفيها.

- حمداً لله على سلامتك؟

قلتها لها بصوت ناعس ، فأجابني بحيوية:

- آسفة حبيبي تأخرتُ عليك!

- أين كنتِ؟ لقد قلقتُ عليك بسبب هاتفك المغلق!

تناولتُ الطبق من يدي ، أغلقت التلفاز ، انتصبتُ أمامي:

- كنتُ مع صديقة لي نشتري بعض من الملابس والأحذية ، وقد أهدتني حذاءً جميلاً أعجبنى ، وكانت ستشتري لي بنطالاً أيضاً ولكني رفضت واكتفيتُ بالحذاء ، فلا يصح ذلك أبداً ، لن أكلفها مالا طاقة لها به ! وأعتذر لأنني أغلقتُ الهاتف؛ فهذا كان طلبها كي نتسوّق بلا إزعاج.

- حسناً فعلتِ .

ثم دلفت صوب المطبخ ، وسمعتها تقول بصوت مُرتفع :

- حبيبي؛ أرجوك احضر الولد من عند جارتنا؟

فُمتُ مُتثاقلاً ، خرجتُ ، دلفت صوب شقة جارتنا ، ضغطتُ

الجرس؛ خرجتُ لي :

- لحظة وأحضر لك الولد .

وبعدما أحضرته وقد كان نائماً حملتهُ ودلفتُ صوب شقتي ، ولما

اقتربتُ من الباب ، وهممتُ أن أدخل؛ سمعتُ صوتاً من خلفي يقول :

- من فضلك؛ أنا سائق السيارة الأجرة التي استقلتها السيدة

زوجتك... خذ هذه الأشياء فهي تخصها؟

نظرتُ إليه مُتعبجاً؛ لقد كان يشبهه كثيراً ، بل كان نسخة من

ذلك الشاب المُغفل الذي كان يُراسلني على أني أنثى ، ويبعث لي

بالهدايا! ولكن كيف عرف هذا السائق رقم الشقة؟ مؤكداً زوجتي

هي التي أخبرته ليتبعها بأشيائها .

ترك الأشياء أمام الباب وبدا أنها بنطالاً ذو علامة تجارية شهيرة؛

ربما صديقتها صممت عل شرائه وارسلته لها ، ثم أسرع الخطى

صوب المصعد الكهربائي ، وسرعان ما هبط به ، فناديتهُ على

زوجتي لتأخذ أشيائها ، ودخلتُ الشقة مُتمتماً :

- سبحان الله؛ يخلق من الشبه أربعين!



إيمان

الموت أم الفراق؛ أيهما يولد أولاً، أم أنهما يولدان معاً؟

هل هما وجهان لعملة واحدة: الحُب؟

حبيبتِي؛ غرِبتْ شمسها عن حياتي إلى الأبد، وأمستْ حياتي من بعدها ظلام مُطبق؛ لا أرى به ثمة أمل، ولا أسمعُ به ثمة صوت، عدى صوته هو: «قلبي»...

قال لي وقتذاك:

- صدقني هي مغرمة بك حتى النخاع!

ظننتُ أنه يَبُتُّ بي الأمل لا أكثر، أو يهديء من روع نفسي، ولكني الآن أصبحتُ أتقن لغة القلوب؛ سألته مستكراً:

- كَيْفَ لعاشق الرحيل عن معشوقه في وقت هو في أمس الحاجة

إليه؟

عندها تهادت نبضاته بطريقة مفاجئة. سألته:

- مالك يا قلبي ماذا جرى لك؟ ما بال دقائقك قد تهادت؟ أشعر بأنها

قاربت على التوقف! أرجوك لا تتوقف؟ عُدْ لنبضك؟ عُدْ إلى الحياة؟

أجابني متأففاً:

- أريد التوقف والموت لتبوء بذنبي؛ فما قيمة الحياة بعد رحيلها!

عندها سألته:

- أريدك أن تجبني: لماذا رحلتُ عني دونما عتاب؟ لماذا فضّلتُ

الصمت والهروب؟

صَرَخْتُ، تعالت صرخاتي؛ لم يجب عليّ؛ لقد توقف عن الحديث

معى، ولا شىء هنالك إلا صدى صرخاتى، وفات ذكريات أتقوت
عليه وقت الضيق.



اسمى «شعبان».

أنتمى لإحدى محافظات الوجه القبلى.

وقد شاءت الأقدار أن تأت بي لأدرس فى الجامعة بالقاهرة.

وأسكن فى حى متواضع بأطرافها.

لى بعض من الأصدقاء؛ كسبتهم فى الجامعة، من بعض من
المحافظات.

فى الأجازة الأولى؛ بدأنا تبادل الزيارات. صديقى المقرب لى
كان «عز» من إحدى محافظات الوجه البحرى.

ركبتُ القطار لوحدى قاصداً إياه؛ أتذكر وقتذاك؛ انقباض قلبى
وتزايد دقاته، وكأنه كان ينبهنى لشىء يشعر وحده به! ولكنى لم
أكثرث لتنبهه!

استقبلنى عز بمحطة القطار، ورحب بى:

- شرفتُ بلدتى المتواضعة صديقى العزيز "شعبان"، هياً لآخذك
فى جولة لن تتساها أبداً ما حييت؟

وركبنا سيارة أجرة أوصلتنا إلى بلدته؛ تنزهنا بالبلدة، وتفرجنا
على الحقول الخضراء، ومزارع الفاكهة، والترع، وتسكنا
بالطرق كثرًا ثم ذهبنا لدارهم.

كانت داراً ذات طابقين من الطوب الأحمر، وأمامها طريق ترابية
واسعة، وخلفها الحقول الواسعة التى تتناثر بها بيوت القرية.

كنتُ قبل ذاك الوقت قد سمعتُ أن محافظة عز بالذات؛ بها

أجمل بنات مصر، ولما رأيتها؛ تأكّدت أنها أجمل بنات العالم
أجمع؛ كانت خارجة من دار صديقي عز مهرولة، وكنا نحن هامون
بالدخول، فكادت أن تصطدم بي -وياليتها اصطدمت- رَفَعَتْ
بصرها وتَجَمَّدَتْ موضعها! وجدتي منتصب أمامها كتمثال من شمع
كاد أن ينصهر من نور وجهها؛ أتأمل القمر الذي بزغ عليّ فجاءة!

وقَفْتُ غارقاً في بحر السحر بعينيها السوداوين النجلاوين،
وطامعاً في النجاة بالتعلق بأي هذب من صفي أهدابها المتراصين،
أسفل هلالتي حاجبيها الغزيرين. كانت بيضاء كسحابة ربيع،
يشوب خديها احمرار عنابي، شفيتها تلمعان ببريق أخاذ، وطابع
الحسن بوجهها المُدَوَّر يشهد ويوثق أنها ذات حسن ودلال. قامتها
أقصر مني بقليل، أنا نفسي لستُ طويلاً، ومع ذلك فإن القصيرات
لهن جاذبية لاتقاوم!

كانت تَرْفُلُ في عباءة صفراء فضفاضة، وعلى رأسها طرحة
بذات اللون؛ تَدَلَّتْ من أسفلها خصلات شعر بنية مموجة.

مر وقت ليس بقليل، ومازلت أقف كالأبله، وتقف هي كالبلهاء؛
حتى كُسر الصمت بيننا بصوت عز الذي كان يقف كالأبله أيضاً،
وجه كلامه لي، قال:

- إيمان!

قلت في نفسي: آمنت بك يا خلاق فيما أبدعت بذلك الوجه
الملائكي!

نَظَرْتُ إليه، أضاف:

- إنها إيمان أختي في الرضاعة، نسيّت أن أحكي لك عنها، وهي
تسكن في ذلك الدار!

وأشار بيده إلى البيت الراقد بين الحقول من خلفنا. كان قلبي

وقتذاك؛ يحدثني، ينصحني، ينبهني تارة بزيادة نبضاته، وتارة بكثرة انقباضاته، وما كنت أبالي لأي من حركاته.

ذهبتُ هي، ودخلنا نحن بعد أن عرفها لي وعرفني لها، لم تتفوه بكلمة سوى «أهلاً وسهلاً» وبحشجة!

ليلتئذ؛ حدثني عنها كثيراً صديقي، وكانت ليلة ليلاء، وكنت مستمتعاً بالحديث عنها، كنت أتخيلها أمامي أثناء وصف عز لخصالها:

- طيبة طيبة انقضت من سنين - مثلك تماماً - وهي أصغر أخواتها البنات وكلهن متزوجات، عمرها تسعة عشر عاماً، وليس لها أشقاء صبية، وتعليمها متوسط، وتعيش مع أمها، أما أبيها فهو خارج البلاد. نام عز، ولم أذق طعم النوم، ولا أعلم سبباً؛ كانت صورتها تتأرجح بمخيلتي كالبنودول من فينة لأخرى؛ فأبتسم!

غرفة عز بالطابق الثاني، وبها شرفة صغيرة تطل على الطريق الترابي والبيوت التي تليه والمتناثرة بين الحقول.

شعرت بأن الشرفة تتادني، دخلتها؛ انقبض قلبي لمّا وقع بصري على إيمان المنتصبه تحت ضوء مصباح واهن بشرفة دارهم؛ تراقب غرفة عز - التي أنا بشرفتها - ولمّا رأيتي؛ أطفأت المصباح، ودخلت غرفتها وأغلقت باب الشرفة.

حينئذ؛ خرجت من أعماقي تنهيدة عميقة، وعدتُ أدراجي لأنم.



خرجنا ثاني يوم لنتسكع بالحقول وفجأة؛ خفق قلبي؛ فوجدتها أمامنا، حَمَنتُ؛ ربما كانت تتسكع بين الحقول الخضراء هي أيضاً مصادفة! استوقفناها وسلمنا عليها، وتبادلنا الابتسامات للمرة الثانية، كنتُ أشعر بأن عيناها تقول شيئاً، ولكني لم أفهم أيضاً لغة العيون!

بدا أنها سَعِدَتْ كثيراً عندما رأيتني، وأنا أيضاً كنت جد سعيد ،
وكأننا كنا نبحث عن بعضنا بعضاً وكان بيننا موعد ، ولكنني
ظننتُ لحظتها أن رؤيتها محض مصادفة ، ولكنني اكتشفت فيما
بعد ؛ أن الصدفة ما هي إلا مواعيد تتخذها القلوب سرّاً فيما بينها !
كم كانت صعبة عليّ لغة القلوب ، وكم تعذبتُ بسبب جهلي
بها ، قالت إيمان :

- أنا سعيدة لأنني تعرفتُ بصديق عزيز لأخي .

أجبتها متهدج الصوت :

- أنا أسعد لأنني تعرفتُ على أخت عزيزة لصديقي .

لم أكذب وقتذاك ؛ فقد كنت أشعر بسعادة غامرة ولكنني ما
كنت أعرف كُنْهها !

دق جرس هاتف عز ؛ قام ليتحدث بعيداً عنا .

كنا جالسين تحت ظل شجرة جميز كبيرة ، سألتها :

- أمخطوبة أنتِ ؟

أجابتني بابتسامة :

- لا !

- أمرتبطة عاطفياً ؟

أطرقت رأسها وضحكت ضحكة كتغريدات كروان يستقبل
انبلاج الفجر قائلة :

- لا !

نَظَرْتُ إلى عز ، قالت :

- ربما يحدث حبيبة !

ابتسمتُ ، قلت :

- ما رأيك في الحب؟

- أمقته، ولا أريد أن أحب يوماً من الأيام!

- لماذا؟

- لأنني رأيت فتيات كثيرات من صديقاتي وقعن في الحب من قبل وعانين كثيراً، وتحطمت قلوبهن، وعشن معذبات، ولم يجدن مَنْ يسبر أغوار قلوبهن!

لقد صُدمتُ من وجهة نظرها وسألتها مستكراً:

- ألهذه الدرجة الحب ضار بالبشر!

- مثل التدخين بالضبط!

قالتها وضحكنا سوياً، ثم قالت بجدية:

- الحب مُحطم للقلوب لأنه دائماً وأبداً نهايته الفراق!

ثم حدجتني وسألتني:

- هل وَقَعْتَ بالحب من ذي قبل؟

- أنا! لا... لم أقع ولن أقع! فأنا مازلت طالبة أدرس وأمامي سنين حتى أتخرج وأفكر بعدها في العمل ثم بالزواج؛ لذلك سأعمل بنصيحتك العقلانية.

وانفجرنا ضاحكين، فمددتُ كفي لها فضربتُ بكفها على كفي في حركة تلقائية مصاحبة لمزحتنا، ولما توقفتُ راحة كفها فوق راحة كفي؛ سرتُ بجسمي كهرياء لذيذة؛ انقبض لها قلبي وتناطح خفقاته، وساد بيننا الصمت. شردتُ عيناها بعينيها وكأنهما يتحدثان مع بعضهما بلغة خاصة، تشابكتُ أنا ملي بآنا ملها لا إرادياً، وبدتا كعاشقان يتعانقان بشغف ولهفة.

كنا في عالم من الخيال... هل قُلْتُ خيال؟ أجل؛ بل أجمل من الخيال؛ إحساس بالطمأنينة والدفء كنت أشعر به لأول مرة، ولم

أكن أفقه أنه... الحب!

حتى إيمان أيضاً لاحظتُ أنها كانت تشعر بنفس ما أشعر به من
سعادة ودعة وكهرباء، قال لي قلبي لحظتها:

- إنه الحب!

أجل؛ لقد كان الحب، ولكنني كنت أجهل لغة القلوب، فلم
أدرك كُنْهُهُ وقتذاك!

نادى علينا عز؛ أفتنأ من غفوتنا هذه، وَعُدْنَا إلى واقعنا من جديد.



تقابلنا أكثر من مرة بعد ذلك وكانت تلازمنا نفس الأحاسيس
الجميلة مجهولة المصدر. انتهت الزيارة، واللّه أعلم هل كنت سأراها
ثانية أم لا؟ رحلتُ إلى القاهرة فاقداً لشيء ما، إحساس ما، شخص
ما!

تواترت الأيام، وذات مرة اتّصل بي عز، قال:

- هناك شخص يريد أن يكلمك ليطمئن عليك!

خفق قلبي، عندها عرّفتُ أنها إيمان فلا أحد يعرفني عنده
غيرها، قالت بلهفة:

- شعبان؛ اشتقتُ لك!

ثم صمّمتُ وكأنها ندمت على نطقها، قلت:

- ليس أكثر مني صدقيني؟

ولجّبتُ في وصلة بكاء، وأعطتُ الهاتف إلى عز، تساءلت: مالذي
قلته أنفأ؟ ولم أجد ثمة إجابة؛ لأنه خرّج رغباً عني، لأنه خرّج من قلب
صادق، وكان لا بد له أن يخرج مهما حاولت كبح جماحه؛ فصلاحيّة
تخزينه بداخل القلب انتهت! قال عز:

- إن حالها تغيير يا صديقي! باتت تتحدث عنك كثيراً ، ومشغولة بك أكثر ، أنا أخشى أن تكون قد وَقَعَتْ في حبك!
عندها صُعِقْتُ متسائلاً: كَيْفَ وَقَعَتْ في حبي؟ هي تكره الحب!
ولكني تَبَيَّنْتُ فيما بعد بأن الحب جان؛ يَتَلَبَّسُ القلوب دون أن نشعر به! قلت لعز:

- يا صديقي أَنْتَ تعرف أنني متى أحببتُ فتاة ارْتَبَطْتُ بها ، وأنا مازلتُ طالباً كما تعرف ، أمامي سنين حتى التخرج؛ ومن ثم العمل وتكوين نفسي ، ثم التفكير بالحب والزواج.
- أي تفكير يا صديقي؟ الحب كالموت دائماً ما يأتي فجأة دون أيما استعدادات.

قلتُ له بعد لحظات تفكير:

- اعطها رقم هاتفي لتتصل بي ، وأنا سأحاول أن أفهم ما يدور برأسها؟
ومن وقتها وصرنا نتحدث كل ليلة بالساعات على الهاتف.



عُدْتُ إلى الدراسة؛ تعرَّفْتُ إلى أصدقاء وصديقات جدد ، أَصْبَحْتُ أكلم الكثير من الفتيات هاتفياً؛ فَتَضَاءَلْتُ حصة إيمان من المكالمات ، بَيِّدَ أنني لا أشعر بالراحة والأمان والسعادة إلا عندما أسمع صوتها هي فقط!وقد كُنْتُ أحكي لها عنهن ، وكانت تغضب ، وأسلوبها يتغير والبعيد لا يكثرث؛ لقد كانت تغار علي وما كنت أدري!

تساءلْتُ كثيراً: «لماذا أحادث الكثير من الفتيات غيرها ، بَيِّدَ أنني لا أشعر بالدفء إلا معها؟» وكالعادة؛ لم أحصل على ثمة إجابة مفهومة من نفسي أو من قلبي ، أو بالأحرى لم أفهم لغة قلبي!

ذات يوم أزمعت إيمان على القدوم إلى القاهرة:
- أريد أن أراك، سأذهبُ أنا وأختي لنَشْتَرِ ملابس من سوق
«العتبة» لابد أنه قريب منك، لذا فلترتب لنا لقاء؟
كانت أمنيته حينذاك، ولكنني تناقَلْتُ الأمر وكنت مشغول
عنها، قلت لها:

- إن شاء الله؛ فلنأتُ سالمةً أولاً؟
وأتصلتُ بي بعدما نزلتُ القاهرة، ولكنني شَغِلْتُ عن الذهاب إلى
لقاءها، ومن بعدها وقد أُغْلِقَ هاتفها لأسابيع، ولم أكن قد فهمتُ
وقتها: أن عدم تحقيق أمنيته سيغضبها أشد غضبة.



مرت الأيام؛ كان قلبي ينبهني، يحذرني، ينصحي، ولكن ما
كنتُ أتقن لغة القلوب هذه بعد. ذات مرة أعجبتُ بفتاة زميلة لي،
وشعرتُ أنني سأحبها، سَعِدْتُ وأخبرتُ إيمان عنها؛ فغضبتُ وثارَتُ،
ثم هدأتُ وقالت:

- وهل ستنتظرك تلك الفتاة حتى تتخرج وتعمل؟

أجبتها على مضض، قلت:

- لا أدري ولكنه بداية شعور، ربما لا يتطور!

ومرت الشهور؛ اكتشفتُ خلالها أن الفتاة التي أعجبتُ بها
شخصية ركيكة ليست لها معالم، وسرعان ما كرهتها وبعدتُ
عنها وعن كل الفتيات.

كنا جالسين بمقهى ما، قال لي عزُ مُعقِباً على ما حدث:

- فتيات المدن يختلفن عن فتيات القرى؛ هناك فرق بين من
يترعرعن بين الأبراج الخرسانية، وطرفاتها الضيقة المظلمة،

وعوادم السيارات، وبين من يترعرعن بين الحقول الخضراء، والبراح
المُشمس: مثل إيمان.

قلتُ في نفسي: إيمان... أفتقدُها كثيراً وأتمنى أن أراها أمامي
الآن!.

وقتذاك كان هاتفها مغلق، وقد كانت بيننا مكالمة أخيرة؛
كانت فيها جد حنونة، وجد رقيقة؛ شعرتُ حينئذُ بأنها ستعترف لي
بشيء ما، بمكنون ما؛ ولكن فجأةً انشغلتُ مع سائق السيارة التي
كنت أستقلها، وفتاة كانت تقعد بجانبني، كانا يتحدثان معي في
أمر الأجرة والنقدية، فشعرتُ هي بعدم اهتمام مني، ولما سمعتُ
صوت الفتاة؛ دارت برأسها الشكوك و غضبتُ بشدة، وأغلقتُ الخط
دون استئذاني، ومن بعدها ولم أعرف عنها شيئاً.

سألت عز:

- طمئني عن إيمان ما بال هاتفها مغلق؟

- هي في زيارة لأقارب لها بقرية مجاورة وستعود قريباً إن شاء الله.

وفجأةً سألني السؤال الذي لا يعرف إجابته سوى قلبي، قال:

- هل تحب إيمان؟

صمتُ وقتاً طويلاً، سافرتُ لها فيه بخيالي؛ لأطمئن عليها
ولأتأملها ولأقبلُ جبينها وألمس يديها، وانقبضَ قلبي وزادت دقاته،
وبدأت أفقه لغة القلوب. قال لي قلبي بألم:

- اشتقتُ لها!

سألته بلهفة، قلت:

- هل تحبها؟

أجابني في الحال:

- أنا أعشقتها!

وعندها أجبْتُ عز وقلت بوجع:

- قلبي يعشقها!

سالت دموع عيني شوقاً وحنيناً؛ فرحَ صديقي كثيراً، قال:

- قل لها ماقلته لي حالاً مؤكداً أنها ستفرحُ به كثيراً، وأنا

سأفرحُ بكما؟

كنت أتمنَى ذلك، ولكن؛ أنا اكتشفتُ توّاً أنني مغرم بها؛ بيد أنني مازلت أدرس: هل ستنتظرنني خمس سنوات؟ مستحيل! هل سأستطيع أن أعيش بدونها طيلة هذه السنين؟ مستحيل! كيفَ سأتزوجها وأنا لا أملك شيئاً؟ مستحيل! هل سيوافق أهلها على طالب مفلس؟ مستحيل! إذا؛ لقد عشقت المستحيل!

قلتُ:

- ولكني لست...

قاطعني عز، وقال لي كلمات تشبهني:

- ها أنت ذا تنزوي عالقاً بإحدى زوايا مستطيل الحياة بعد أن مللت، لماذا لم تتحرك نحو أي منحني مفتوح؟ كيف لك أن تعشق اللف والدوران بداخل دوائر الحياة المغلقة؟ دائماً تبدأ من نقطة، وتدور حتى تتصعب عرقاً وتعود لنفس نقطة البداية دون أن تدرك. مثلثات كثيرة بحياتك تريد ولوجها، ولكن ليس هناك ثمة باب مفتوح، جميع الأبواب موصدة، مفاتيحها في مربع ما داخل قلبك، ولكي تعثر عليها؛ حاول التخلص من الأشياء العالقة بداخلك، والأشياء منتهية الصلاحية، والأشياء المكررة، والشوائب الخفية المدرجة بدفاترك، حتى يتسنى لك البحث بتروي، وبعدها قم بعملية إعادة توازنك، وضبطِ زواياك، ثم انظر في قلبك بصدق، ستجد المفاتيح، افتح بها الأبواب الموصدة، اخترق جميع المثلثات بشجاعة وهشم

أضلاعها، انسل من دوائر التيه، وانسل من ثوبك القديم البالي،
واغلق جميع منحنياتك المفتوحة، انهض من زاوية ذلك المستطيل،
قم بتلويته قم بإعادة ترتيبه، افتح بجدارة نافذة على العالم، تنفس
الحرية بملء صدرك، وعندها فقط ستشعر بتحسن ما.



بعد أيام أُتيح الاتصال إلى هاتف حبيبي، سعدنا كثيراً أنا
وقلبي؛ كأننا أطفال صغار فرحوا بعودة أمهم، ولم لا؟ فأنا منذ أن
عشقتُ؛ عاد قلبي كقلب طفل، وعاد عقلي كعقل طفل، وأصبح
جسدي هو العقبة الوحيدة التي تظهرني أمام الناس يافعاً.

قررتُ أن أعترف لها بحبي؛ الاعتراف أصبح شغلي الشاغل، أما
ما سيحدث بعد ذلك؛ فسأحارب الدنيا من أجل أن نصبح تحت سقف
واحد معاً!

- أحبك يا إيمان، بل أعشقتك؟

وكشفتُ لها أخيراً عن مكنون القلب من عشق لها، وتمنيتُ أن
أعيش في كنف حبها إلى الأبد، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي
السفن، صرختُ بي غاضبة، قالت:

- أنا لا أحبك... أنتَ أخ لا أكثر! وقد فهمت كل شيء بطريقة
خاطئة... هذا كل مافي الأمر!
قلت لها منهاراً:

- أنا أحبك، وأعرف أنكِ تحبينني؟ ومهما داريتي حبي؛ لن
أكرهك ولن أتركك أبداً، وسأتي إليك في عقر دارك لأطلب منكِ
السماح على مافات وبدء صفحة جديدة سعيدة، وأقولها لكِ وللجميع؛
أنكِ حبيبي!

وما كان ردها إلا أنها قالت بحزم:

- لو كنت آخر رجل بالكون؛ لن أتزوجك! وسأحرجك أن أتيت
وستعد أدراجك مهاناً!
الحقيقة؛ قُصِفْتُ جبهتي وانتهيت؛ أُغْلِقُ هاتفي إلى الأبد، ولما
سألت عز عنها، قال:

- لقد هجروا القرية بلا عودة؛ ولا أدري أين ذهبوا!
أُذْمَعْتُ عيناى، قلتُ في نفسي: لقد قتلني الشوق إليها وما عوقب
على جريمته! ووجدتني أنشد إلى طيفها خواطري:

اكبحي الدمع كما كبحتي ولجمي الصرخات.
قولي أنك سعيدة في بعدي، واصطنعي البسمات.
اخشي على ماء وجهك من التجمد، ودثري قلبك بالآهات.
البسي قناع الضحية كلما اشتقت كلما سحقتك الذكريات.
احرمي قلبك من حباً أحياه بعدما كان رفاة في رقاد الأموات.
التحفي رداء الحور وامرقي وهنيئاً لك وحدك الجنات.
ولكن تذكرني أنني أحبك وانا من دعوت لك بالفرحات!
وكيف تكون الجنة لذة وأنت وحيدة تقاسين من الحب
ويلا؟!



بعد مرور ثلاثة أعوام مضعمات بالآلام؛ دق هاتفي، ودق قلبي، قلت:

- انتظر يا قلبي لا ترهقني فهناك متصل ما!

قال لي:

- إنها هي!

- مَنْ هي؟

- إيمان!
- حقاً... سأرد حالاً.
- وفتحتُ الخط، قلت:
- السلام عليكم؟
- ولكن لا أحد يجيب! وفجأة نطقتُ بحياء، قالت:
- هل هذا رقم «أميرة» من فضلك؟
- يا الله إنها هي بالفعل! ولكن ماذا أقول لها؟ سأجيب، قلت:
- بلى معك «أميرة»... أقصد أنا أخ لأميرة، أجل أنا أخ لأميرة،
ولكنها ليست موجودة حالياً!
- ضَحِكْتُ، وقد كنت محتاج لأسمع تلك الضحكة لتلتئم بعض
من جراح القلب، وتتشي الروح جرعة تقوية لمواصلة الحياة، قلت:
- مَنْ حضرتك؟
- أنا صديقتها بالعمل، أين ذهبت؟
- هي بالخارج... بالخارج!
- طيب! عندما تعود أرجوك أبلغها أن تتصل بي؟
- إن شاء الله!
- السلام عليكم؟
- لقد أغلقتُ الخط! لم نتحدث بعد، لم أطمئن عليها! لماذا لم تقل
أنها هي؟ لماذا؟ كنت أريد أن أقول لها:
- كلانا خسر؛ صدقيني مامنا منتصر؟
- كلانا ذاق ويلات سذاجته، كلانا الدمع على خده انهمر.
- كلانا بات ليله بلاقمر، والشمس خاصمته، والشوق بصدره
يستعر.

كلانا يعرف أنه مخطيء، كلانا لعودة الآخر ينتظر.
كلانا شحب وجهينا، وباتت ملامحنا في خطر.
كلانا ما عاد يدفته، سوى جمر الفراق، وأنات قلب انكسر.
كلانا زهد الدنيا، وفي الآخر هام وذاب واندثر.
كلانا خسر؛ عودي أم أعود أنا، وليصبح كلانا مُنتصر؟
وقتذاك؛ حاولتُ معاودة الاتصال بها، ولكن وجدتُ الخط قد
أُغلق! سألت قلبي، قلت:
- قلبي... هات ما عندك؟
- قلت لك أنها تحبك حتى النخاع، وكلما اشتاقتُ إليك سألت
عن صديقة من صديقاتها ولكن من خط جديد.



إيمان ٢

يا من أحببتك حتى عُميت عن رجال الكون، يا من عشقتُ طبيبتك حتى ظننتك ملاكًا، يا من تهتُ في أزقة قلبك حتى ضللتُ الطريق، يا من غرقتُ في بحر عينيك حتى كرهتُ النجاة، يا من ذبتُ في نسيمات عبيرك حتى كفرتُ بالربيع؛ قل لي: مَنْ أَنْتَ؟

مَنْ أَنْتَ لتجعلني حتى وأنا بعيدة عنك؛ مجبولة على متابعتك، وتحري أخبارك، والاطمئنان عليك، وكأني تركتُكَ لأتفرغ إليك!

كلما أدماني الحنين إليك؛ ابتعتُ بطاقة هاتف جديدة؛ لأتصل بك وأسمعُ صوتك وأغلقُ الهاتف بوجهك بعد أن أطمئن عليك، أو أسأل عن أي اسم لأتمطقُ بعض من الأمان بسماع أنفاسك، لأتدثر لحظات بدفئك، وبعدها أحتفظُ بالبطاقة بين مئات من أوراقى وكراساتى. بين أوراق لم أنقش عليها سوى اسمك، ولم أرسم عليها سوى وجهك، وأكثر كلمة تمنيتُ أن أقولها لك؛ كتبتها هنا بتلك الأوراق؛ لأنى عجزتُ أن أقولها لك بلساني؛ أحبك... كتبتها مئات المرات على سطر، وانتظرت ردك على سطر آخر، وفي كل مرة لا أجد منك ثمة رد! في كل ورقة؛ أحبك، وسطرك فارغ، في كل ورقة؛ أحبك وجوابك لا يظهر، في كل ورقة أحبك؛ ولا أجدك!

وها أنذا الآن وبعد سنين؛ أكتبُ قصتي معك، على نفس الأوراق، بجانب اسمك، وبجانب «أحبك».

أكتبُ عنك إليك، أكتبُ عنك وعني لأسترح من عذابي، أكتبُ عنك كي أخفف من فوق قلبي أحماله، أكتبُ عنك لربما لتخليد ذكراك ولكن... هنا بين أوراقى.

صدقني يا حبيب؛ ما أكتبُ عنك سوى محاولة لمحاولة المحاولة
في نسيانك، ولكن لا أدري؛ لماذا لا أنساك!

كلما كتبتُ عنك؛ تعلقْتُ بك أكثر، كلما كتبتُ عنك؛ تغلغلتُ
فيّ أكثر، كلما كتبتُ عنك؛ تدرجتُ صوب أحضانك أكثر،
كلما كتبتُ عنك؛ فُقدت في غابات حنيني إليك، كلما كتبتُ
عنك؛ شعرت بأنّي قتلتُك. قتلتُك وقتما رحلتُ قافلتني عن مدينتك؛
قتلتُك وقتما انسلتُ من واقعك لألج في خيالك.

الحقيقة يا حبيب؛ لم نعد أحياء، بتنا مجرد حروف، مجرد أطياف
وجوه، مجرد بريق دموعات، مجرد ذكرى صدئة، مجرد قلبان
منقوشان على الأوراق؛ قلبان ينسل منهما سهم الحب بتأن، ولا أحد
يكثرث لدمائهما المنهمرة سدى؛ قلبان اختارا الفراق رغماً عنهما،
قلبان كان الله في عونيهما.

حبيبي؛ برغم محاولاتك الحثيثة في البحث عني، ولايصال رسائل
قلبك لقلبي، وكلما عثرت عليّ هربت منك؛ لا زلت أحبك! وكلما
فكرت بالعودة إليك؛ خشيت من فراق آخر يكن نهايتي الحقيقية؛
في الحقيقة أتمنى الاقتراب، ولكن إن اقتربت منك؛ استسلمت لك،
وأسلمتك روحي وقلبي؛ وإن تركتني لحظتها فسأمتوت؛ لأن روحي
وقلبي معك! لذا دعنا متباعدين، فعذابي الآن أهون بكثير من
عذابي إن عدتُ لك ثم تلاشيت أنت!

هل تعرف؟ لازلت أذكر لحظة رؤيتك، حينما بزغت أمامي
كشمس طال تحرقُ ليلي لشروقها، رحت تتأملني وأتأملك، حسبت
عيناك ليج فكشفت عن ساقبي، وغرقتُ في سوادهما مذكاً حتى
الآن ولم أنتشل؛ قامتك المتوسطة، جسمك الممتلئ، جبهتك
العريضة، انفك المتوسط، ابتسامتك الساحرة، شاربك الأسود،
لحيتك النابتة، عيناك السوداوان الواسعتان. شفطاك اللتان كانتا

تتمتجان باسمي عندما عرفك بي أخي «عز» وكأنما وجدت ضالتك أمام بيت صديقك الذي أتيت إليه من بلد بعيد؛ كنت أمام الباب، وكنت أنا خارجة منه، فدخلتُ قلبك، ودخلتُ أنتَ الباب، ليأتي ما دخلتُ البيت، ولا القلب، وليتك ما أتيت ودخلتُ البيت والقلب.

ليلتئذ؛ شردتُ فيك طوال ليلي، وكنتُ أراقبُ البيت من بعيد، لعلني أرى طيفك ثانية، ورأيتُك بالشرفة فهربت منك! وقابلتُك في الحقول الخضراء، فأينعتُ حقولي، سلمتُ عليك، قعدنا، تمازحنا، سألتني عن الحب، فأجبتك:

- لن أحب!

وسالنتي:

- هل أحببت؟

فأجبتك:

- لم أحب!

ولكن عيناى قالتها لك صريحة، لما حَضَنْتُ يدي بغير قصد منك، وبقصد من قلبك؛ فزلزلتُ حصون قلبي ودمرت أسواره، وتربعتُ داخله، ونبض بحبك ولا يزال ينبض حتى الآن.

انتهت أجازتك ورحلتُ، ورحل معك جزء كبير مني، ليأتي رحلتُ معك، وليتك ما أتيت، وليتك ما رحلتُ؛ بكيْتُ كثيراً من شوقي إليك، بدأنا نتواصل عبر الهاتف، أولعتُ بحبك أكثر، وأنتَ ما شعرت بولهي!

وفي عامك الدراسي الثاني بالجامعة، نسيتني، وزادت فتياتك، شعرتُ بأني مجرد اسم في دفتر يعج بالصدقات، حاولت الاعتراف لك بحبي، ولكنك كنت في حالة يرثى لها، وخشيت أن تجرحني. بعدها؛ أتيتُ إلى بلدك على أمل لقياك، ولم تعرنِ اهتماماً،

كانت أمنية، وبجهلك جعلتها عقدة! هذا كل ما جعلني أكتم حبي
بين جنباتي، وجعلني أكتفي بك خيالاً، وأتمناك واقعاً، وأموت من
شوقي بلا كفن ولا دفن، قبوري هو جسدي، وعزاي لم آخذه من
أحد!

تماديتُ في تهميشي، كأنك حاكم طاغية، وأنا الشعب، لذا
رتبتُ لشورة، أترك فيها بلادك وأرحل؛ أعيشُ خارج حدود الوطن،
خارج حدود الزمن، خارج حدود حيك؛ لتصبح حاكماً بلا شعب،
لتُصبح جسداً بلا روح كما كنت أنا.

وجاءت لحظة اكتشافك بأني موجودة في حياتك، عندها جهزت
قافلتني، وتهيأتُ إلى الرحيل، وقلتها لك:

- لو كنت آخر رجل بالكون؛ لن أتزوجك، وسأخرجك أن أتيت
وستعد أدراجك مهاناً؟

قل لي: ما الجواب الذي كنت تنتظره مني؟ كرامتي لا زالت
مجروحة من إهمالك لي سنوات، كنت أحبك وما انتبهتُ، ولما مللت
أنا انتبهتُ أنتَ، ياله من حظٍ عثر، وقتذاك؛ لزم عليَّ الرحيل لمداداة
قلبي من تقاريح وتباريح خلفتها أنامل تجاهلك عليه.

ورحلتُ قافلتني؛ ولجئتُ بحر وجع هائج، ولكن؛ هل تعلم أنني
مذاك لا يمر أسبوع إلا ورأيتك بأحلامي سبع مرات؟
هل تعلم أن الوحدة والدموع والندم هم أصدقائي الأوفياء من
بعدك؟

هل تعلم أن أيام الأعياد أفسى الأيام وأشدها حزنًا؟
يحدثُ أن يخرجن صديقاتي مع أزواجهن، وخطابهن؛ يتتزنهن،
ويفرحن، وأنا بغرفتي، أتتزه معك في خيالي؛ لقد اكتشفتُ أنك
كل أعيادي، وتيقنتُ أنني مادمتُ بعيدة عنك؛ فلن أشعر بمرور أي

عيد؛ وسأنتظرك أنت يا عيدي. فبرغم تجاهلك لي، وقسوتي عليك،
وبرغم أنك لا تعرف عنواناً لي؛ لازالت كلماتك ووعدهك بأنك ستأتي
إلي تزلزل أركان قلبي البالية، تمنحني أمل أنقوتُ به على دنياي.
يحدثُ أن أنظر من فينة لأخرى من شباكي، أنفقدُ الطريق، أرقبُ
الباب، أسرحُ بك، أتخيلك، أشتم رائحتك، أتحدثُ معك وتحدث
معى، أرتمي بحضنك فتقبلني قبلة تمنحني جناحين، أغمض عيناى،
وأطير فأجدك تنتظرني في أحلامي، تبسم لي، تسألني:

- لم تأخرتِ؟

فأجيبك بابتسامة:

- أنت من أخرتني!

وهاأنذا أرتدي فستانى الأبيض، وأنتَ بدلتك البيضاء؛ وتأخذني من
يدي، ونركضُ بين المروج الخضراء غير أبهين هل هو حلم أم حقيقة؟
لنتوقف أمام قصر منيف من الذهب والفضة يلمعُ بين المروج، فأسألك:

- لمن القصر؟

- لك أنتِ محبوبتي.

أسعد كثيراً، وتتناثر ضحكاتي بالفضاء كنجمات، وأحضنك
وأقبلُك، وفجأة نجدُ أنفسنا داخل القصر، ثم تختفي أنتِ، وأصعقُ
أنا من القلق عليك، ومن تساؤلاتي عن سبب اختفائك ومكانه؟
وفجأة أسمعُ صوتك عن كذب تبكي، تنتحب، فأفزع، وأصرخُ:

- أين أنتِ حبيبي؟ لماذا تنتحب؟ عدُ أرجوك... عدُ؟

وفجأة؛ أجدُ نفسي مستيقظةً، ولكن صدى نحيبك ما يزال
يلازمني، يأتيني من كل صوب واتجاه..

أسألك: ذنبي، أم ذنبك؟

لقد وصلتُ إلى مرحلة اللامبالاه؛ لم تعد لدي أشياء تشجعني على
مواصلة العيش من أجلها؛ سوى أُمى المسكينة التي لطالما بكيتُ
وأنا مغمورة بين أحضانها، بعد كل اتصال بيننا؛ حينما كنت

أبكي شوقاً لك، وضجرةً من إهمالك لي، وخوفاً من بعدك عني،
ومن مستقبلنا الغائم، وما كنت أدري أن الفراق سيكن قراري الذي
سأخذُه بنفسِي! سامحك اللهُ يا قلبي ضيعتني... سامحك اللهُ!
أتساءل دوماً، وأعاتب نفسي وأبارزها: أنا لم أنتظر حتى لأسمع
أعداره، أو أسامحه، لم أتعرف له بحبي، لماذا حكمتُ على نفسي
بالحزن؟ كان لابد من الرجوع إليه، كان لابد من استكمال قصتنا
التي انتهت قبل أن تبدأ؟!

ولكن دونما فائدة، فلاتزال كرامتي متدمرة، حتى وأنا أكتبُ
قصتنا الآن، لا أدري كيفَ أنهيها، أم أتركها بلا نهاية على أمل
عودتك لتنتهيها بنفسك؟ أم ماذا أكتب؟ سأترك قلمي فوق أوراقِي
حتى أجدُ نهايةَ القصة، أو نهايتي.

أنتظرُ؟ لا لن أتركها، وما يزال رقم هاتفك محفور بعقلي، اسمع؛ أنتَ
لي! أنتَ ملكي، فكيفَ أتخفى لأطمئن عليك؟ لن أتخفى بعد اليوم، وقد
قررتُ العودة إليك، قررتُ الدفاع عن حبي، قررتُ التحلي بالشجاعة، فلن
أنتظرُ حتى يبلى عمري في خوف ووحدة، أو مع رجل غيرك جسد بلا روح.
حتى مَنْ يتقدمون لخطبتي، وبعد أن أوافق عليهم، فجأةً أجد
نفسِي أبكي وأرفضهم، وأعود لعزلتي وأعود لشرودي فيك، لم يعد
لدي قدرة على تخيل رجلاً غيرك بين أحضاني ...

وها هي النهاية؛ سأصلُ بك، وإن سألتني:

- مَنْ أَنْتِ؟

لأجيبك بذهو وأقول:

- حبيبتيك



مشهد ساخن

في ظلام تؤرق الأشعة الملونة من لحظة لأخرى.
في خلجات دوامة موسيقية هادئة، صادحة من الجدران، تقشعر
لها القلوب الرقيقة.

راح يتأمل الجلوس!

كلهم سعداء؛ هكذا أعتقد!

كلهم مشدوهون، جاحظوا العيون.

كلهم يقطر من جبينه العرق، ولا يدري، أهو خجلاً أم اشتهاً أم
تأثيرات المناخ؟ إلى أقصى الحدود؛ كلهم مُستمعون!

الرجال؛ يتلمظون ويتمنونها، كل يُسرُّ في نفسه «ليت شفّيتاي
التي تلتقم شفّيتها!» أو «ليتني أنا الذي تسكن بين أحضانه الآن تلك
المُهرة الجامعة!»

حتى النساء، يغبطنها، ويتمنين أن يحلنّ محلها، ويزقن قُبلة ذلك
الوسيم، معشوق النساء، الذي تتفاخر الفتيات بوضع صورّه على
جدران غرفات نومهن، أو يحلمن به أحلاماً تُشبع شبقهن، أو يُجاهرن
سعيدات، بأنه فارس أحلامهن!

إلا هو؛ بدا مُتملماً في قعدته على الكرسي بالصف الأول،
القريب من شاشة السينما الكبيرة، يتأمل ظلال ردود الأفعال على
وجوه المُشاهدين من حوله؛ ضحكاتهم، امتعاضاتهم، خجلهم،
بجاحتهم، يحاول قراءة ما تلوکه صدورهم، أو ما يحاول اقتراض
أنه يَلاک بصدورهم!

تارة؛ يتأمل الوجوه الشمعية، التي راحت تُطلّى من حين لآخر
بشتى الألوان، المُنعكسة من الشاشة عليهم، وتارة يرمقها بنظرة
تتسلق تضاريتها الشاهقة، وأجزاء جسدها العارية في خفاء وتوجس؛
أليس من حقه أن ينظر إلى جسمها؟ أليست حلاله؟ يتساءل خجلاً
في أعماقه. تقعد هي، غير بعيدة عنه، يفصل بينهما ذلك المُمثل
الوسيم، فارس أحلام الفتيات.

كانت تراقب نفسها على الشاشة، وبشاشة تقاسيم لا تُفارقها،
وشغرة فم، وارتفاع حاجبين، وابتسامات من حين لآخر، تُرسلها
بعشوائية، في كل الاتجاهات من حولها، بضُحبة نظرات لا ترى إلى
صورتها المُتحركة على الشاشة، أينما استدارت، وأينما حطّت!
ويدها التي تسللت منذ قليل، وقد تعانقت بيد الوسيم بجوارها،
مازالت قابضة على يده، وقد شكلتا سويًا ترمومتراً لقياس صدى
التفاعل مع الشاشة، بتذبذب الضغوطات ما بين الشدة والوهن.

نادم هو، أشد الندم!

ولكن ليست تلك المرة الأولى التي يندم فيها، بل إنه في كل
عرض خاص، لفيلم من أفلام زوجته: الممثلة الشهيرة؛ يشعر بالندم!
لماذا وافق منذ البداية؟ لماذا سمح لها بولوج تلك المهنة؟ كان
لابد من زجرها، وإن أصرت، كان لزاماً عليه تركها!

ذات مرة، منذ سنوات؛ شاهدها مُنتج شهير مصادفة بمركز
تسوق بصحبة صديقاتها، ولما رأى من جمالها، ورشاققتها؛ أسرَّ
لها بما ستجده من شهرة، وأموال، إن انضمت لفريقه من الممثلين
والممثلات. أما زوجها فقد رفض في البداية، وعندما تركت له
المنزل ليلة، وباتت في بيت والدها، فوجئت في الصباح، باتصال
زوجها!

- تعالي لترين من في البيت!

صمتت قليلاً ، ثم سألت:

- سيكون من؟

قال سريعاً:

- المُنتج السينمائي... كي تبدأ معاً اختبارات التمثيل؟

- أنا أعشقتك... حالاً سأنبثق عندك يا حبيبي!

لم يقوَ على خِصامها؛ يتذكر ليلتها ، أنهما لم يناما إلا صباحاً ، من إرهاق ليلة الحب الساخنة! ويتذكر أيضاً أنها كانت آخر ليلة من هذا النوع، وما كان يحدث بينهما ، بعد ذلك ، كان مثل إعطاء جرعات شحيحة من الدواء المُر لمريض كي يظل مريضاً لا يبرأ؛ فقد صارت أنافتها ورشاقة جسدها شغلها الشاغل.

كان حبه لها لجاماً ، لَجَم إرادته من أطرافها تلجيماً متيناً ، لم يكتشف حتى الآن كيفية الخلاص من عُقدته. وبات ذلك اللجام ، هو الذريعة القوية ، التي يستطيع أن يُفحم بها أي ذرة غيرة ، تُحاول أن تُبعث من أعماقه.

تمسك يد زميلها أمامه ، متجاهلان وجوده ، ومنذ متى تكثر لوجوده؟ وأيها أحق بالغيرة ، تلك القُبلة التي تخطت الدقيقة ولا زالت مُستمرة أمام الجميع ، وأجزاء جسدها العارية أسفل الملاء ، ووجودها أسفل الممثل الوسيم تارة وفوقه تارة أخرى - أم أيديهما المتشابكة؟ تُرى ماذا يقول الناس عنه ، دُبر كل عرض خاص لفيلم من أفلامها ، حينما يقف كالأبله خلفها هي وزملائها ، راسماً على وجهه قناع أحمر ضاحك ، وإيماءات يُرسلها ، ولا يعرف إلى من تصل؟

حتماً ما يُقال هو يعرفه جيداً ، وعاش سنيناً يكبجه كلما أحس به آت من ظلمات أعماقه ، وما يفتأ يزجر نفسه من وقت لآخر ، ويقول لها ساخطاً:

من يرفض حبيبته؟

من يرفض الأموال؟

من يرفض المركز الاجتماعي؟

من يرفض النعم إلا مجنون؟

من يرفض هذا كله من أجل عادات وتقاليد بالية؟

وفجأة؛ بيتسم!

يتذكر ما حدث معه، في العرض الخاص، بالفيلم السابق.

كان يقف كعادته خلفهم -عقب العرض- وهم يصفحون جماهيرهم، ويلتقطون الصور معهم، ويوقعون لهم التذكارات، يُفرق الإيماءات والابتسامات، لأي ظل يمر من أمامه أو من خلفه، وفي لحظة سهو منه، سقطت يد بضة على كتفه، فنظر خلفه، وجدها امرأة في عقدها الخامس من العمر، قالت له بلهجة وقور:

- هل تسمح لي بأن ألتقط صورة معك؟

ابتسم مُتعباً، مؤكداً أن بالمرأة خُبال! هكذا فكر. ازدرد ريقه، وانتصب بجوارها، وعيونه تلمع ببريق موؤود، والتقطت الصورة، ثم أعطته دفتر صغير مفتوح وقلم، وطلبت توقيعها! وقع لها على مضض، ويده ترتعش، ورأسه يضح بالتساؤلات! كادت المرأة أن تبتعد عنه مُبتسمة، لولا أن استوقفها خجلاً، وسألها مُتردداً:

- لماذا لم تطلبين توقيعها هي... لماذا أنا؟

ابتسمت، ثم قالت اجابتها، وذابت أمام ناظره بين الزحام، ولكن صداها راح يتردد في رأسه حتى اليوم:

- أنت المُمثل الحقيقي الذي يستحق التكريم.



لذّة السقوط

صوتي يتحوّل لعندلة كلما مررتُ من أمام شقته؛ شعوري بأنه بالداخل، يستمع إليّ؛ يجعلني أترثر بأي هذر:

- الجو بارد جداً اليوم! لا أدري لماذا!

وأطيل وقفتنا أنا وأمي أو أنا وأختي أمام باب الشقة لدقيقة؛ تمرّ عليّ كأنها يوم مُزدحم الأشغال...

- بارد لأننا بالشتاء يا أختي... ما خطبك!

حتى بعدما تزوّجتُ وتركتُ البيت؛ لا زلتُ أذكره! لأزل أذكر رؤيته لأول مرّة؛ وجهه الخمري، شعره القصير المجعّد، جلبابه البسيط، وخفه الجلدي، لحيته النابتة وشاربه القصير. كنتُ عائدة من عملي بورشة الخياطة، صاعدة السلم، أتأمل في عباتي السوداء مُنهكة القوى، وجدته يُدخل أمتعته البسيطة إلى الشقة. هو من سيسكن شقة الطابق الرابع، التي تسبق السطح حيث نسكن أنا واختي الصغرى، وأخي الأصغر والداي.

كان مُتعرِّفاً إثر مجهوده، والجو الحار، انتبه لمروري بجانبه فبادلني ابتسامة، ثم أفسح طريقاً لي بين أمتعته لأمر، فبادلته الابتسامة مُلقية السلام، فأجابني بصوت متهدّج:

- وعليكم السلام أختي.

ثم حَمَلْ أشياءه واخفي بالداخل؛ توقّفتُ لحظات أرقب الباب، ثم انتفضتُ لسذاجة فعلي مُكملة طريقي.

- أمي... لقد رأيتُ شاباً بالشقة أسفلنا يدخل أمتعته!

كانت خارجة من المطبخ مُتعرِّفة بشبابها الخفيفة:

- إنه شاب جنوبي أعزب، وهو من سيسكن بها!

- سألتها بعد لحظة صمت:

- ولم يُسكن صاحب البيت أعزباً بين عائلات!

- لربما يمر بضائقة مائيّة؛ ولم يجد سواه! غيري ثيابك والحقي بي

إلى المطبخ، قبل عودة أبيك وأخوتك؟

تهالكُ فوق الأريكة؛ شاردة في اللاشيء، لم أبدل ثيابي

آنذاك، ولم ألحق بأمي. لم يكن بيني وما بين «الأعزب» سوى

السلام؛ خجول هو كفتاة بكر. أنا البكر لستُ في خجله. لماذا لا

يهتم بالكلام معي؟ أم أنه لا يفضّل فتيات المدن! أهو تحقير لهن أم

خجل منهن أم ماذا؟ تساءلتُ غير مرة ولم أجد الاجابة!

أصادفه بطرقات الحي وأزقته؛ وهو ذاهب إلى عمله الذي لا أعرفه

مبكراً، أو وهو عائد منه مساءً؛ فتبادل النظرات، نظرات صامتة لا تتوانى

عن الشرثرة، وكأنه يقول: أنت الفتاة التي تسكنين بالأعلى؛ أعرفك؟

أو:

- أنت جميلة أتمنى أن نتحدّث معاً ولكن...

أسأل عينيه: ولكن ماذا؟ أليدك ثمّة إجابة أيها الأعزب الجميل؟

لكن لا تجيب عيناه! تحين منه التفاتة لجسدي الممتمليء قليلاً

بالعباءة السوداء، ولبروز نهديّ، وربما ينظر أيضاً إلى مؤخرتي بعد

ابتعادي عنه! لحظتها أعتقد بأن عيناه تصرخ إليّ:

- أنت تمتلكين جسداً مُثيراً، أتمناه، وأحلم به أحلاماً شبقة؛

أضاجعه في خيالي.

كلمات عيناه؛ كانت جريئة، وجميلة.



تمت خطبتي لزميل لي في ورشة الخياطة، بل هو معلمي الذي أعمل تحت إمرته منذ سنوات؛ لقد تشربتُ الصنعة على يديه، هو شاب طيب ويحبني، أما الأعزب فهو كالميت في برزخه المجهول؛ لا أدري أهو معذب، أم مُنعم؟ لا تصدر عنه أي انفعالات؛ جامد هو كالسماء؛ لا يسقط ذات مرة كسفاً على أرضي! لم يحاول في مرة أن يتبادل أطراف الكلام معي بلسانه، بدلاً من عينيه.

في كل مرة يزورنا فيها خطيبي؛ أنزل معه ليلاً لأرافقه حتى باب البيت بالأسفل؛ وقبل أن ننزل؛ تقف أمام شقة الأعزب؛ نتبادل الهمسات، ولمسات الأيدي، والأحضان والقبلات.

قبلات أحاول أن أجعلها تصدر ضجيجاً، علّه يسمع فيستفيق من رقاد، أو أصدر من فينة لفينة تأوهات أضع كل مالدّي من غنج بها. أحياناً كثيرة؛ أتخيّل الأعزب هو خطيبي؛ وهو من يقبلني ويحتضنني بين ذراعيه السمراوين المفتولين، وصدرة العريض.

أفكر؛ ربما يتنصّت إلينا من خلف الباب الخشبي الساكن، ربما يمارس الجنس من طرف واحد على أغنوجاتي! أو ربما نائماً، أو ربما غير موجود أصلاً.

كأنه حلم! أو لاشيء؛ يدخل شقته، يغلق الباب، ثم تتقطع جدران عن بث أي همسة أمل تدل بأن تلك الشقة فيها بشر. قلّ ما تبث جدران شقته وسقفها؛ أغان جنوبيّة كلها فرح ونوح، وأشد ما يميزها؛ المزممار والرّباب؛ المزممار الصّداح المُتجاهل لكل الآلات الموسيقية بجواره، والرّباب التي تنوح من تجاهله إياها.

في يوم الجمعة؛ ننظّف الشقّة ونرتّبها، ثم أذهب لأحضر الإفطار؛ بابه ساكن! أحاول عبثاً أن أوخر نفسي في المطعم لعلّي أراه حينما يأتي؛ ولكنه لا يأتي. أعود، نفطر جميعاً، ثم أرقب الطريق من الشباك ويدي كوب الشاي الذي ملّ مثلي من الانتظار؛ فلا يخرج:

كيف يعيش إذن، ألا يأكل مثلنا!

تزوجتُ بعد سكنته في البيت بعامين في شقّة بعيدة عن الحي،
وأنجبتُ فتاة. أعيش حياتي مثل أي أسرة، خصام لأيام، ووثام
لشهور، ولكن كثر ما تخيلتُ الأعزب مكان زوجي وعلى سريرهِ؛
في حلم منام أو حلم يقظة. أغمض عيناي، وتلتحفني لذة مشوبة
بدوار، وكأني أسقط من السماء، فيتلقفني فوق ساعديه القويين،
يقبلني فوق صدره العريض المُلتهب كرمال الصحراء. كشاة عارية
من جلدها؛ أنضح فوق جمره ببطء. أتركه يعبث بكل ما في قافلتني
التائهة، ليعيدني في النهاية إلى هودجي المزخرف؛ أبهى من ذي قبل!
كلما أتيتُ في زيارة لأمي؛ وما إن دخلت البيت، إلا وتساقطتُ
دقات قلبي كجبل صخور خرّ من عل! حنين غامض يسحطني لرؤيته،
ولسماع صمت جدرانهِ، أو مزمار أغانية، أو الرثاء لأنين ربّاه.
وأخشى أن يكن قد غادر بلا رجعة، فمجرد احساسي بوجوده في
الداخل يريحني كثيراً. فقلّ ما أصادفه بمدخل البيت أو أمام شقّته،
ونتبادل ذات النظرات الثرثرة، التي باتت -بعد زواجي- تقول لي:
ليتني أنا الأب لابنتك؟

أو:

- ليتني أنا من أبات في أحضانك كل ليلة.



قبل زواجي؛ كثر ما تمنيت أن أطرق بابهِ، وما إن يفتح لي؛ إلا
وأرتمي بين أحضانهِ وأقبلهُ، وأشهق بالبكاء. وانتني أكثر من
فرصة؛ فقد كان ينسى أحياناً مفتاح شقّته بالثقب من الخارج، أو
ينساه فوق سور السُّلم القصير، ويتفق بأني عائدة من العمل، فأطرق
بابهِ فيفتح:

- مفتاحك... لقد نسيتته بالخارج؟

أقولها له متعرفة؛ فيبتسم فأبدله الابتسامة، وتقول لي عيناها:

- أدخلي فأنا محتاج إليك؟

ولكن لسانه ينطق بشيء آخر:

- أشكرك أختي... تصبحين على خير؟

فكنتُ أوصل أنذاك صعود درجات السلم القليلة المتبقية متكدرة، ساخطة. في إحدى ليالات الشتاء الأخير قبل زواجي؛ كنتُ أقف بصحبة خطيبي، أمام شقة الأعزب كالعادة، وقد اقترب ميعاد زواجنا، وذاك ما جعلنا لا نترك خلوة قصيرة الأمد إلا واستهلكناها ألد استهلاك؛ قبيلات، أحضان، لمسات شبقة؛ كنا نتجهز للآت. أمام شقة الأعزب؛ كنا سكارى من شدة الانشاء. في تلك اللحظة؛ لم أكن أتخيل الأعزب مكان خطيبي، ولكني كنت في اللذة من نهاية. فجأة؛ وجدتُ الأعزب يخرج من باب شقته ويقف صامتاً يشاهدنا، وعلى وجهه الذي استحال إلى أحمر لا يعتوره شيء - سيماء غضب شديدة مُرعبة.

لا أدري لماذا شعرتُ لوهلة أنني امرأة خائفة، والأعزب هو زوجي الذي ضبطني للتو متلبسة بالخيانة مع رجل غيره! عندئذ انقبض قلبي وغار في أعماق جسدي المرتجف؛ ومادت الأرض بي؛ فانخلعتُ من حضن خطيبي فزعة، فنزل خطيبي إلى الأسفل وكان شيئاً لم يكن، وهرولتُ أنا إلى الأعلى.

لم تهدأ انقباضات قلبي، وتسكن رجفات جسدي، وتتنز بي الأرض؛ إلا بتساقط زخات دموعي وأنا أهرب من نظراته التي لم أفهم حتى الآن؛ ماذا كانت تقول لي آنذاك؟



سراب أغسطس

بعد انقضاء شهر من المسير، وصل إلى مدينة الأكوخ، دخل الكوخ المشيد من خشب وصفيح، كان متعباً فانطرح أرضاً، شعر بخدر يلتحف سائر جسده، أحس بأنه مريض، راحت ذكرياته تتخبط بجدران عقله، راح يستعيد كل ما حدث له، قال في نفسه: ليتني وُلدتُ كلباً ضئيل الحجم بشعر أبيض طويل وناعم، لكنت أستقل السيارات وأطُلُّ من نوافذها سعيداً، لكن من منا يختار مصيره؟ وُلدتُ كلباً بلدياً، أسوداً قبيحاً، وبعينان حمراوتان كالعضريت، وبذنب أتر مقرز.



قبل ذلك بعدة شهور؛ كان جرّوا وله أربعة أخوة جراء؛ كانوا يتزاحمون على ثدي أمه، فكان يقترّب ليرضع مثلهم، فيقول له أحدهم:

- لن تشاركنا حلمات أمنا أيها الشيطان الغريب؟

فيرد محزوناً:

- أنا أخاكم!

فيزعق عليه آخر ساخرًا:

- أنت ابن حرام!

وينفجروا ضاحكين وسط صمت أمهم!

كانوا جميعاً بيض الألوان، والأم أيضاً، لذا تملكهم إحساس بشذوذه وغرابته في أسرته، ولكن الأم كانت حنونة عليه؛ ومتى

يشبع أخوته من الرضاعة؛ تأخذه بعيداً عنهم وتُرضعهُ حتى يشبّع،
وكانت تلغقه بأناة وتشمه بعطف.

مرت الأيام وزادت من عزلته. وذات يوم عاد إلى الوهدة التي
تسكنُ بها عائلته في أطراف المدينة حاملاً بين أنيابه دجاجة ثمينة
نافقة، وكان أخوته يتهارشون ويتلاعبون غير بعيد.

خرَجَتْ أمه إليه، فوقف أمامها، تفحصته بعطف، فألقى
الدجاجة أرضاً، وفجأة؛ انقضَّ عليه أخوته، كانوا أقوى منه بدنياً،
خطفوا الدجاجة من أمامه، وأوسعوه عضاً وهبشاً وسط لا مبالاته
وعبوسه، وصرخ به أحدهم:

- أترُكها يابن الحرام إنها من حقنا؟

وقال آخر:

- مثلك لا يأكل الدجاج يا حقير، أخرك الخبز اليابس العفن

يا عفریت!

فما كان منه إلا أن فذ عنهم غير بعيد، وأقعى فوق جدار متهدم
وراح يتأمل المدينة البعيدة الراقدة كجثث كلاب نافقة، خلف
سراب أغسطس المتوهج؛ نادباً حاله السيء وساخطاً على حظه العثر.

- خذ هذه؟

قالتها أمه بعدما جاءت من خلفه، وألقت أمامه قطعة من الدجاجة
كانت قد خلصتها من بين أنياب أخوته بالقوة، قال بتجهم دونما أن
يلتفت إليها:

- عفتها يا أم!

- لماذا يا ولدي؟

التفت لأمه، رمقها بعينان لامعتان توشكان على الطفر بدمعهما،
ثم عاد بنظره إلى المدينة النافقة، قال بلهجة شاردة:

- حان موعد الرحيل!

أَقَعْتَ أُمَّهُ أَرْضًا ، أَدَمَعْتَ عَيْنَاهَا ، قَالَتْ بِصَوْتٍ مَتَهَدِّجٍ :

- أَتَتْرُكُنِي؟

نَهَضَ وَقَفَزَ مِنْ فَوْقِ الْجِدَارِ ، اقْتَرَبَ مِنْ أُمِّهِ ؛ لَعَقَ رَقَبَتَهَا وَخَطَمَهَا ، وَحَاكَ جِلْدَهُ بِجِلْدِهَا ، وَأَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ . نَهَضَتْ أُمُّهُ وَلَعَقَتْ دِمْعَاتِهِ وَخَطَمَهُ ، تَفَلَّتَ مِنْهَا وَقَفَزَ فَوْقَ الْجِدَارِ ، التَفَّتْ إِلَيْهَا ؛ وَجَدَهَا تَتَأَمَّلُهُ بِحُزْنٍ ، نَظَرَ فِي عَمَقِ عَيْنِهَا فَرَأَى انْعِكَاسَ صُورَتِهِ ضَائِلًا جَدًّا ؛ تَأَكَّدَ بِأَنَّهُ قَدْ اتَّخَذَ الْقَرَارَ الصَّحِيحَ !

أَطْرَقَتْ أُمُّهُ رَأْسَهَا أَرْضًا ، وَلَمَّا رَفَعْتَهُ كَانَ قَدْ تَوَارَى خَلْفَ دِمُوعِهَا وَخَلْفَ السَّرَابِ الْمَتَوَهِّجِ .

تَوَاتَرَتِ الْأَيَّامُ ، وَالْكَلْبُ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْمَدِينِ وَمِقَالِبِ الْقِمَامَةِ ، وَبَدَا خَلُّهُ حَنِينًا لِأُمِّهِ ، وَلِلْوَهْدَةِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا ، وَإِلَّاخُوتِهِ رَغْمَ مَكْرِهِمْ بِهِ ، لَكِنَّ الْجَفَاءَ وَقِلَّةَ الْحِيلَةِ جَعَلْتَهُ لَا يُفَكِّرُ بِالْعُودَةِ أَبَدًا ، يَجُوعُ أَيَّامًا وَيَأْكُلُ أَيَّامًا وَظَلَّ عَلَى هَذَا الْمَنَوَالِ شَهْرًا .

وَاسْتَقَرَّ بِهِ الْحَالُ فِي مَدِينَةِ غَرِيبَةٍ ؛ رَاحَ يَتَجَوَّلُ بِطَرَفَاتِهَا لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَيُنْبِشُ صِنَادِيقَ قِمَامَتِهَا وَيَشْمُ بِأَكْوَامِهَا .

فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ ؛ أَقْعَى الْكَلْبُ عَلَى قَارِعَةِ أَحَدَى طَرَفَاتِ الْمَدِينَةِ الْوَاسِعَةِ ، بِجَانِبِ كَوْمَةِ قِمَامَةٍ ، وَرَاحَ يَتَأَمَّلُ سَكَانَ الْمَدِينَةِ الْمَهْلَهْلِ الثِّيَابِ ، الْمَكْفَهْرِي الْوُجُوهِ ، الْمَنْكُوشِي الشَّعْرِ ؛ حِينَئِذٍ شَعَرَ بِالنَّدَمِ عَلَى تَرْكِهِ لِمَدِينَتِهِ ؛ حَيْثُ الدِّجَاجُ النَّافِقُ وَالْعِظْمُ الْمَلْبَسُ بِاللَّحْمِ وَقَطْعُ الدَّهْنِ وَالْأَمْعَاءِ ، قَالَ فِي نَفْسِهِ : لَيْتَنِي لَمْ أَرْحَلْ ؛ قَضِيْتُ أَسْبُوعًا بِتِلْكَ الْمَدِينَةِ ؛ مَا صَادَفْتُ أَحَدًا يَرْمِي عِظْمَةً أَوْ سَاقَ دِجَاجَةٍ ، لَا يَوجِدُ سِوَى الْفُؤُولِ وَأُمِّ الْفُلَافِلِ ، وَمَا صَادَفْتُ كَلْبًا ضَالًّا بِطَرَفَاتِهَا ... يَالَهُ مِنْ حَظِّ عَشْرٍ .

وكان كلما مرَّ أحدًا مِنْ سكان المدينة نظر إلى الكلب
باستغراب وابتسامة تعجب!

بعد ساعة اقْتَرَبَ من الكلب شابًا بالعقد الثالث مِنْ العمر،
هزِيلَ الجسم، مهلهل الثياب، منكوش الشعر؛ ماسكًا بيده كيسًا
أسودًا، وقرْفَصَ أمامه، وتعجب مِنْ ثباته وعدم نفوره منه، مَدَّ الشاب
يده ورَبَّتْ على رقبتة ومسّد شعره، فاستكان الكلب وأغْمَضَ عينيه
وأن أنينًا مسموعًا، قال الشاب:

- مسكين أيها الكلب، لقد رَمَتَكَ الأقدار على مدينة الأكواخ؛
والله لو طال بك الوقت هنا لهَأَكَّتْ جوعًا، أو ذبحوك أهل المدينة
وأكلوك.

أَدْخَلَ الشاب يده بالكيس وأخْرَجَ رَغِيْفًا بجوفه الدهن والبصل
المطبوخين، واقتسم الرغيف مع الكلب، وراح يتأمله وهو يأكل
بنهم مصدرًا أنات مشبعة بالوجع، وإفراز لعابه لا يتوقف. أعَادَ نصف
الرغيف الآخر إلى الكيس، ثم رَبَّتْ على ظهر الكلب، ونهض
موشكة عيناه على ذرف دمعاتها، ومشى بعيدًا متناقل الخطى
يَخْتَلِسُ النظر إلى الكلب مِنْ فينة لأخرى، فيجده لم يحوّل بصره
عنه، فعاد سريعًا إليه وأخْرَجَ نصف الرغيف الآخر، وأعطاه إلى
الكلب مبتسمًا، وراح يتأمله:

- كُلْ يا صديقي كُلْ؟ حالنا مِنْ بعضه، ومصائرنا واحدة؛ أنا
أستطيع التصرف و جلب الطعام بأي طريقة، وأستطيع أن أصرخ
وأقول جوعان، وأستطيع التحمل أيضًا، لكن أَنْتِ! أَنْتِ حيوان أعجم
طيب لن يفهمك أولئك البشر!

بعدما أكل الكلب؛ وقف الشاب وأوعز إليه بأن ينهض ويتبعه،
نهض الكلب ثم تبعه حتى وصلا إلى كوخ بأطراف المدينة يقطن
به الشاب.

توقف الكلب يلهث أمام الكوخ متأملاً المكان القفر، فوجده
أكواخاً وعششاً وخصوصاً متراصة بعشوائية، ولمح أبراجاً عاليةً
لامعةً خلف مدينة الأكوخ هذه؛ تطلُّ بشموخٍ من بعيد، فتعجب ولم
يفهم ما كُنهُ تلك الأبراج.

دخل الشاب من باب كوخه المغلق بستارة قماشية بالية، ثم خرج
وبيده طست به ماء، ثم نظر إلى الكلب مُبتسماً:

- لا بد أنك عطشان يا صديقي، اشرب، هذا ماء الله الطهور.

ثم وضعه أمامه، وتربع أرضاً يشاهده فولغ الكلب منه حتى
ارتوى، ثم قال:

- إنه ماء النيل المقدس يا صديقي، هل تعلم أن النيل نهر من أنهار

الجنة؟

اقترب منه الكلب وتمسح بجسده وأن أنات طويلة موجعة، فمسد
الشاب شعره بيديه واحتضنه:

- من اليوم أنت صديقي، سنقتسم اللقمة والشربة معاً.

قال الكلب في نفسه: واللّه إنك أحن علي من أخوتي ومن جنسي كله!

مرّت بالطريق جوار الكوخ فتاة قصيرة القامة، تتمايل في جلباب
أسود مرقّع ملطخ بالأدران، وجسدها مجرد عظام تكسوها الثياب،
لا تبين من سمك طبقات الأوساخ بوجهها سوى عينين واسعتين بارزتين
من محجريهما، وشعرها جعد منكوش، تمسك بيدها جوال مهتريء
مليء بفضلات أطعمة وخبز وزجاجات بلاستيكية فارغة.

نظرت الفتاة إلى الشاب والكلب ثم توقفت وإنفجرت ضاحكة،

حدّجها الشاب، قالت:

- استطعم نفسك أم ستطعمه؟

- أغربي عن كوخي يا بلهاء؟

أشاحت بوجهها وتابعت طريقها مُنْمَتَةً:

- أَقَطَعُ ذِرَاعِي إِنْ لَمْ تَكُنْ قَدْ أَصْطَدَّتْهُ لَتَذْبَحْنَهُ وَتَأْكُلْنَهُ لَوْحَدِكَ
يا حَمَّالَ الْخِرَاءِ!

وبعد تعاقب الأيام مع صديقه البشري؛ اسْتَرَدَّ الْكَلْبُ عَافِيَتَهُ،
وَأَصْبَحَ كَلْبًا نَاضِحًا، وكان الشاب يهتم به؛ يُقْتَسِمُ رِزْقَهُ مَعَهُ؛ يحضر
له العظم والأمعاء وفضلات المطاعم مِنْ قِمَامَةِ مَدِينَةِ الْأَبْرَاجِ، أو
يشترى أجنحة الدجاج وأرجلها ويقوم بطهيها ويتقاسمها معها،
ويُثَرِّثُ لَهُ كَثِيرًا، ويوح له عما يَعْتَلِجُ بِهِ صَدْرَهُ.

يعتقد الشاب أن الكلاب تفهم البشر لكنها لا تتطق بلغتها،
تحسُّ بِالْأَمِّ الْبَشَرِ وَلَكِنِهَا لَا تَسْتَطِيعُ النُّطْقَ بِالْمَوَاسَاةِ. لقد كان
الشاب وحيداً مثل الكلب؛ يتيماً يقات من عرق جبينه، حَمَّالٌ
كادح، يَنْتَقِلُ بَيْنَ الْأَسْوَاقِ؛ يَحْمِلُ لِهَذَا جِوَالًا، وينقل لذاك قفص،
ويشحن لأحدهم أثاث بيته فوق سيارة نقل، وهكذا كانت حياته.

جلسا الصديقان يتداعبان ذات يوم، فقال الشاب إلى الكلب:

- هيا لآخذك في نزهة إلى مدينة الأبراج التي تطل على النيل؟

وتجهزا الصديقان وأخذوا حزام طريق طويل حتى دخلا مدينة
الأبراج، فتبدت على ملامح الكلب الدهشة، وراح يتأمل كل شيء
من حوله بشغف؛ الشوارع الواسعة النظيفة، الأبراج الزجاجية العالية،
ضجيج السيارات الفارهة، إشارات المرور التي يقف بها من فينة
لأخرى، الضجيج الغريب المنبعث من السيارات، والكلاب الضئيلة
الحجم ذات الشعر الطويل الناعم التي تطل بسعادة من نوافذها،
والبشر الضخام المعلقون على لوحات أعلى الجسور.

بعد دقائق تناوبت على أنف الكلب رائحة اللحوم المشوية،
فتوقف فوق الطوار يبحث بأنفه وببصره عن مصدرها بين المباني
الضخمة وواجهات المحال الزجاجية، فلاحظه الشاب، وعاد له؛

فَرَفَصَ أَمَامَهُ ، وَرَاحَ يُرَبِّتَ عَلَى رَقَبَتِهِ قَائِلًا :

- صديقي... اتبعني ربنا يرضى عنك ، ولا تكثرث لأي رائحة طعام هنا أرجوك ، فهذه الأطعمة تمنها يزيد على ثمني أنا وأنت حتى إن اغتسلنا ووضعنا عطرًا ، اتبعني لنذهب إلى كورنيش النيل ، لترى أنتَ نهرًا من أنهار الجنة ، وأرى أنا الفتيات الجميلات في حُلَّهن الضيقة والقصيرة وأمتع عيناى؛ لأنك تعرف أنى ربما لن أتزوج أبدًا ، وإن تزوجتُ فستكون من عينة قاطنات مدينة الأكواخ ، وأنت رأيت بنفسك مقدار الصدأ والوسخ على أجسادهن ، ناهيك عن حظائر القمل بشعورهن ، وكتائب البراغيث بثيابهن القذرة ، هيا لا تقلب عليّ المواجه أرجوك؟

وصلا الاثنان إلى الكورنيش ، وكانت الشمس تهوي إلى فجوة الغروب بتأن خلف الأبراج الضخمة ، ناثرة أشعتها الذهبية الواهنة على نوافذ الأبراج الزجاجية ، وكانت أمواج النيل تلمع بوميض كالذهب ، والمراكب تشق بأشرعتها صفحته الخضراء بتؤدة.

قعدا الصديقان فوق المقعد المثبت فوق الطوار ، كانت وجهة الكلب إلى النيل يتأمله في صمت ، وكانت وجهة الشاب إلى الكورنيش يتأمل الفتيات الفارهات المارات ، وتناغي العشاق ، والسيارات الملونة والأبراج الزجاجية.

وقف الشاب ، فنظر إليه الكلب ، فوجده راح يذرع الطوار يمينًا ويسارًا مُتأملًا كل ماحوله ، فعاد لتأمل النيل.

من بعيد ظهرتا سيارتان فارهتان قادمتان بسرعة تتسابقان ، استدار الشاب ليشاهدهما ؛ انحرفت إحدهما واعتلت الطوار وصدمته سريعًا فقذف بعيدًا فوق الطوار ينزف دماءً غزيرة ، ثم وقفت السيارة غير بعيد ، ولم ينزل منها أحد ، واختفت الأخرى سريعًا.

انتفض الكلب راكضًا صوب صديقه ، وجده ملقى أرضًا غارقًا

في دمائه، لا ينطق، يرتجف، تتحشرج الأنفاس بصدرة، وتخرج كشخير النائم؛ أيقن أنه هالك لا محالة؛ ظل يئن بجواره ويلعقه ويشمه بحزن.

رفع الشاب يده بثقل، أشار صوب السيارة التي صدمته، ثم سقطت يده، وتهادت أنفاسه، وأغمضت عيناه، وهرع الناس صوبهم، وانتشرت الجلبة.

حينئذ؛ وجّه الكلب بصره إلى السيارة كاشفاً عن أنيابه، مُقرراً الانتقام لمقتل صديقه، ثم انطلق صوبها.

خرج قائد السيارة مُترنجاً، راح يدور حول السيارة يتفحصها، وفجأة؛ قفز فوقه الكلب، وغررز أنيابه برقبته واقطعها فسقط القائد أرضاً ينتفض في بركة دمائه، وانتشر الذعر والصراخ والاستغااثات بين المارة.

اغتنى الكلب صدر قائد السيارة المُسجى مغتاضاً، وظل يتَمَلَّمُ فوقه حتى فارق الحياة، عندها نبَحَ غاضباً بأعلى صوته في كل الاتجاهات فتردد صدى نباحه بين أبراج المدينة. ثم صمت، قال في نفسه متأملاً وجه القتل: لقد قتلت من أطعمني وآواني! منذا يطعمني الآن؟ منذا يأويني؟ لن يشبعني بعد اليوم سوى لحمك!

وهمَّ الكلب بنهش لحمه نهشاً، لولا أن دَوَّتْ سارينة الشرطة، ووجد رجال في حلال بيضاء يهرولون صوبه مُمسكون بأيديهم أشياء سوداء تقذف اللهب، مصاحباً لفرقة مُدوية!

حينئذ؛ قفز سريعاً واجتاز طريق الكورنيش، وتوارى بين شوارع مدينة الأبراج.

فَكَرَفَ في العودة ليلقي على صديقه نظرة وداع، ولكنه لم يَهْتَدِ إلى الطريق، عندها قرر العودة إلى الكوخ، ولكنها أَظْلَمَتْ مِنْ حوله، فظل تائها بالطرقات حتى غادر المدينة، وبات بالعرءاء مع

شروق الشمس اهتدى لمدينة الأكواخ، وَصَلَ إِلَى كُوخ صَدِيقِهِ،
وَمَكَثَ بِهِ أَيَّامًا وَلَمَّا قَرَصَهُ الْجُوعُ غَادَرَهُ.

رَحَلَ قَاصِدًا الْوَهْدَةَ الَّتِي وُلِدَ بِهَا، رَحَلَ وَلَا زَالَتْ صُورَةُ صَدِيقِهِ
الشَّابِّ الْمَضْرُجِ بِالْدمَاءِ لَا تَفَارِقُ خِيَالَهُ.

مَرَّتِ الْأَيَّامُ؛ وَصَلَ لِأَطْرَافِ الْمَدِينَةِ الَّتِي وُلِدَ بِهَا لَيْلًا، بَحِثَ عَنِ
أُمِّهِ وَإِخْوَتِهِ فَلَمْ يَجِدْهُمْ، وَلَمْ يَجِدْ كَلْبًا وَاحِدًا!

بِالصَّبَاحِ؛ خَرَجَ مِنَ الْوَهْدَةِ وَتَمَشَى قَلِيلًا تَجَاهَ الْمَدِينَةَ، وَلَمَّا اقْتَرَبَ
وَجَدَ أُمَّهُ وَإِخْوَتَهُ مَوْتَى فَوْقَ أَكْوَامٍ مِنَ الْكِلَابِ النَّافِقَةِ، عِنْدَئِذٍ؛
خَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَتَرَكَ الْمَدِينَةَ، وَعَادَ أَدْرَاجَهُ قَاصِدًا مَدِينَةَ الْأَكْوَاخِ.
وَبَعْدَ انْقِضَاءِ شَهْرٍ مِنَ الْمَسِيرِ، وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ الْأَكْوَاخِ، دَخَلَ
الْكُوخَ الْمُشِيدَ مِنْ خَشَبٍ وَصَفِيحٍ، كَانَ مَتَعِبًا فَانْطَرَحَ أَرْضًا، شَعَرَ
بِخَدَرٍ يَلْتَحِفُ سَائِرَ جَسَدِهِ، أَحَسَّ بِأَنَّهُ مَرِيضٌ، رَاحَتْ ذَكَرِيَاتِهِ
تَتَخَبَّطُ بِجَدْرَانِ عَقْلِهِ، رَاحَ يَسْتَعِيدُ كُلَّ مَا حَدَّثَتْ لَهُ.

قَالَ فِي نَفْسِهِ: لَيْتَنِي وُلِدْتُ كَلْبًا ضَائِلًا الْحِجْمَ بِشَعْرٍ أبيض طَوِيلٍ
وَنَاعِمٍ، لَكُنْتُ أَسْتَقِلُّ السِّيَارَاتِ وَأَطُلُّ مِنَ نَوَافِذِهَا سَعِيدًا، لَكِنْ مَنْ
مَنَا يَخْتَارُ مَصِيرَهُ؟ وُلِدْتُ كَلْبًا بَلَدِيًّا، أَسْوَدَ قَبِيحًا، وَبَعِينِينَ حَمْرَاوَتَانِ
كَالْعَفْرِيَّتِ، وَبِذُنِّبٍ أَبْتَرٍ مَقْرَزًا!

لَمْ يَقُوْ عَلَى النَّهْوِضِ، أَخَذَتْهُ نَوْبَاتُ نَوْمٍ غَرِيبَةٍ، كَلَمَا اسْتَيْقَظَ
نَامَ، وَكَلَمَا نَامَ شَعَرَ بِأَنَّهُ مَسْتَيْقِظٌ؛ تَارَةً يَرَى خِيَالَ صَدِيقِهِ يَغْسِلُهُ
وَيُقَدِّمُ لَهُ الطَّعَامَ وَيُنْقِلُهُ مِنْ مَكَانِهِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، وَتَارَةً يَجِدُهُ
يُمَسِّدُ لَهُ شَعْرَهُ وَيَبْتَسِمُ فِي وَجْهِهِ.

لَمْ يَعِدْ يَفْقَهُ إِنْ كَانَتْ هِيَ أَحْلَامٌ أَمْ حَقِيقَةٌ؟ حَتَّى أَفَاقَ وَشَعَرَ
بِتَحَسُّنٍ؛ فَتَحَّ عَيْنَاهُ فَوَجَدَ دَجَاجَةَ مَطْهِيَّةً فِي طَبَقِ أَمَامِهِ، وَبِجَوَارِهَا
طَسْتُ مَلُوءَةٌ الْمَاءِ؛ تَعَجَّبَ كَثِيرًا وَتَسَاءَلَ فِي نَفْسِهِ عَمَّنْ جَاءَ بِهِمَا؟

نَهَضُ، خَرَجَ مِنْ السَّتَارَةِ الْقِمَاشِيَةِ بِتَثَاوُلٍ، ذُهِلَ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ الشَّدِيدِ بِالخَارِجِ، أَغْمَضَ عَيْنَاهُ دَقِيقَةً ثُمَّ فَتَحَهُمَا، وَبِالكَادِ رَأَى شَخْصًا وَاقْفًا، لَا يُظْهِرُ مِنْهُ سِوَى ظَهْرِهِ، بِالْقُرْبِ مِنَ الْكُوخِ. نَبَحَ نَبْحَةً وَاهِنَةً، اسْتَدَارَ الشَّخْصُ فَوَجَدَهُ صَدِيقَهُ الشَّابَّ؛ بِيَدِهِ عَكَازًا، وَحَوْلَ رَأْسِهِ لُفٌّ شَاشًا أَبْيَضٌ؛ عِنْدَهَا قَفْزٌ فِي أَحْضَانِهِ، فَاحْتَضَنَهُ الشَّابُّ وَنَزَلَ عَلَى رِكَبَتَيْهِ مَتَطَايِرَةً الضَّحَكَاتِ الْمَمْزُوجَةِ بِالْأَهَاتِ مِنْ فَمِهِ، فَارَاحَ الْكَلْبُ يَلْعَقُ وَجْهَهُ وَيَتَشَمَّمُهُ وَيَنْ أُنَيْنًا عَالِيًا، قَالَ الْكَلْبُ فِي نَفْسِهِ: لَوْ كُنْتُ أَسْتَطِيعُ النُّطْقَ لَقُلْتُ حَمْدًا لِلَّهِ عَلَى عَوْدَتِكَ، وَقُلْتُ أَنِّي أَفْتَقِدُكَ كَثِيرًا وَظَنَنْتُكَ مَيِّتًا، وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَنَّكَ تَفْهَمُنِي دُونَمَا أَنْتَقُ!

أَدْمَعَتْ عَيْنَا الشَّابِّ وَرَاحَ يُمَسِّدُ شَعْرَهُ، وَبَرَّبَتْ عَلَى عُنُقِهِ وَيَقْبَلُهُ عَلَى خَطْمِهِ مَبْتَسِمًا:

- أَنَا أَيْضًا أَفْتَقِدُكَ كَثِيرًا، لَقَدْ نَجَانِي اللَّهُ مِنْ أَجْلِكَ، وَسَعِدْتُ بِمَا فَعَلْتَهُ مِنْ أَجْلِي، وَلَكِنْ لَا بَدَّ أَنْ نَرْحَلَ فَوْجُودَنَا بِذَلِكَ الْكُوخِ خَطِرَ عَلَيْكَ وَعَلَيَّ؟

نَظَرَ الْكَلْبُ فِي عَمَقِ عَيْنِي صَدِيقَهُ فَرَأَى نَفْسَهُ كَبِيرَ الْحَجْمِ فَاطْمَأَنَ.

تَجَهَّزَا الْاِثْنَانِ، وَحَمَلَ الشَّابُّ حَقَائِبَهُ، وَمَرَقَا سَوِيًّا يَخْتَرِقَانِ السَّرَابَ الْمَتَوَهِّجَ؛ قَالَ الْكَلْبُ فِي نَفْسِهِ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا بِمَدِينَةِ قِمَامَتِهَا دَسْمَةً.



قُرْبَان

رَحَلَ عن القرية ولم يعد ، ربما لن تطأها قدمه ثانية.
دَكَّته الرابضة أمام داره ذو الطابق الوحيد ، المُشَيَّد من الطوب
اللبن على عَجَلٍ - تراكمت على خشبها الأثرية ، وتحلقت نباتات
الحلف المُصْفَرَّة الشائكة.

أرضًا ؛ أمام الباب الخشبي ، الذي تشعَّبت حوله خيوط العناكب
فكادت أن تخفيه ؛ طَفَحَتْ بُقَع الأملاح ذات الرائحة النتنة من أعماق
الأرض. إن كان موجوداً وحدث ذلك ، لأتى بطسوت الماء وسكبها
فوقها ، ثم قلب الأرض بفأسه ودكَّها ، وما أن ينتهي ، إلا ويسيل
العَرَقُ على جبينه البارز كحبات الماس.

لحيته بيضاء مُشَدَّبة ، وبشرته حمراء وردية عجيبة ، وحاجباه
كثَّان ، أما عمامته فدائمًا خضراء. يرتدي دوماً جلباباً أبيضاً قصيراً.
دخل القرية منذ عام على حين غَفلة ، وبعد انتهائه رحَلَ. العجيب لم
يكثر له أهل القرية مثل اكرائهم لأي غريب!

ابتاع قطعة الأرض الواقعة بالقرب من المقابر ، والبعيدة عن ديار
القرية من أحد أفرادها ، واكترى الأنفار والبنائين ، وشيَّدها على
عَجَلٍ. وقت قدومه لم تكن أمتعته كثيرة مُلْفَتة؛ ثلاثة أجولة خيش؛
جِوَال مُنهن بدا أنه ممثليء بالأوراق أو الكُتُب.

في غبشة الفجر كل يوم عدا الجُمعة؛ يكثرُ عربية بحوزي ،
ويحمل عليها القصعة وتكة الزيت وعجينة الفلافل والموقد ، وبعض
الأسفاط. وأمام الوحدة الصحيَّة المُحاطة بسور قصير ، ومُشيَّدة من
طابق لاغير ، تتخللها شجرات الزينة ، وقدام موقف سيارات القرية؛

يفترش حاجياته، ويبدأ بقلبي الفلافل، حتى تصله أسفاط الخبز الساخنة من فُرن قريبة من موقف السيارات، فوق ذات العربية. عرفه جميع السائقين؛ لقبوه بالشيخ الأحمر، فلم يعرفوا له اسماً، ولم يتجرأ أحداً على طلب معرفته! فقط كانوا يتعجبون من لهجته التي تقع في المنتصف ما بين القاهرية والجنوبية: مُغايرة لهجة أهل القرية البدوية.

«أبنوب... عرب مطير»، «الذاهب إلى مركز أبنوب...»

ذات صباح؛ تعالت النداءات بجوار سيارات النقل المُفصَّلة لها صناديق من هياكل معدنية وقماش، وألواح خشبية؛ لنقل الركاب من موقف «عرب مطير» أمام الوحدة الصحيَّة بالقرية إلى مدينة «أبنوب». توقَّف سائق عن النداء، وتقدَّم صوب الشيخ الأحمر في خطوات متندة بجلبابه الفضفاض، ورائحة الفلافل تخترق أنفه. تناول الخبز والفلافل، وقعد على البساط، ثم وضع إبطه فوق سفط مقلوب. بدا على وجهه ذا الملامح المنقبضة أنه يعاني من أرهاق ما؛ رمقه الشيخ بنظرات عطوف تتوسط وجهه باسم، وطشيش الفلافل في قصعة الزيت فوق الموقد يتوانى:

- هل تعاني من هذا الصداع كثيراً يا «شريف يا ابن سالم»؟

تعجَّب السائق: كيف عرف اسم أبي! ربما سمعه من أحد زملائه!
وأجابه:

- قبل مجيئك لنا بشهور ياشيخ!

صمت الشيخ لحظات انشغل فيها بلف قرطاس فلافل من الصنية أمامه لطفل صغير؛ ثم أخذ منه المال ورحل:

- سيزايلك بلا رجعة إن شاء الله.

قالها له الشيخ بتقاسيم جادة؛ ابتسم السائق في وجهه مُجاملاً

إياه، ومُفكِّراً: ربما يمزح، أو ربما كان شيخاً لديه ملوك من الجن المؤمنين؛ ربما ساحر! لا ليس ساحر، وجهه الوضوء لا ينم سوى عن خير؛ أجل، أو ربما يمزح، ولكن كيف عرف بأمر الصداع؟! مرّت أيام، وتفاجأ الشيخ بعد صلاة إحدى الجمع ببابه يُطرق، ولمّا فتحه وجده السائق:

- شريف... أهلاً، تفضّل؟

تلجلج شريف:

- بارك الله لك يا شيخ...

ابتسم الشيخ وكأنه يعرف سبب قدومه:

- ما فعلتُ شيئاً؛ ما نحن إلا أسباب يا ولدي!

- لقد زالني الصداع؛ والبركة على يديك...

تضايق الشيخ:

- قلت لك نحن أسباب يا ولدي، تفضّل لتشرب الشاي؟

فكّر شريف قليلاً، وبدت حيرة وجهه:

- سامحني يا شيخ، ولكن أريدك أن تأت معي إلى بيتي، أريد

منك خدمة بارك الله لك؛ إن ابني يعاني من صداع أفتك مما كنت

أعاني منه؛ دبّ به مذدّب بي، ونريد لبركتك أن تحل بدارنا... هو

ولدنا الوحيد الذي لم نتجب سواه... ما رأيك يا شيخ؟

تفحص الشيخ عينا شريف بابتسامة غير مُكتملة للحظات، ثم

استدار نحو الداخل:

- سأحضر عباةتي، انتظرنني؟

تمشياً جوار بعضهما على الأسفلت، ثم انعطفا شمالاً إلى داخل

طرقات القرية الترابية، مرّاً بين ديار القرية المتنوعة ما بين الطوب

النبيء والآجر بطوابقها التي لاتزيد عن ثلاثة. كانت العيال تصيح

خلفهما بنزق: «هاهو الشيخ الأحمر يمر»، «شيخ الفلافل رائحته فلافل». لم ينزعج الشيخ قدر انزعاج شريف:

- عيال يا شيخنا لا تأخذ على خاطرِكَ؟

لم يجبه سوى بابتسامة مصوّبة إلى موضع خطواته.

في الدار؛ استقبلتهما زوجة شريف الملفوفة بثيابها الفضفاضة من خلف الباب الموارب مُرحبة، ودخلت لتعد الشاي، فجلسا على الدُّكة جوار بعضهما. دقائقاً كان الشيخ يتأمل فيها حِزم بوص السقف، وجدران البيت الطينية الناتئة، والممتلئة بالشقوق؛ كانت قد أحضرت فيها الزوجة الولد وصنية الشاي.

- ما اسمك يا فتى؟

سأل الشيخ الصبي الهزيل قمحي البشرة، ذو السبعة أعوام، فأجابه مُستحيّاً:

- «سالم».

كانت الأم تتوارى بعيداً خلف ستارة قماشية؛ تراقب ما يحدث، وتعبّبت كثيراً من نظرات الشيخ لابنها، نظرات أورتتها خيفة على الصبي، وكان عينا الشيخ تلمع بوميض ترجف منه القلوب، وميض لم تنساه أبداً منذ ذلك الوقت.

لمّا شعر الشيخ بمراقبتها لهما، نظر إليها نظرة حادة، جعلتها تتراجع إلى الداخل كالمنومة، وزوجها يجلس جوار الشيخ، وعبارات الترحيب تتطاير من فاه بسداجة.

- سيطيب قريباً إن شاء الله.

بعد جلسة تأمل للصبي، نطقها الشيخ، فسعد الأب، وظل يدعو له، وذكّره بكوب الشاي الذي برّد أمامهم.

- أجهّز الغداء يا شيخ؟

- لا داعي لتعبكم؛ سأكتفي بالشاي.

ليلتئذ؛ قالت أم الصبي لزوجها:

- قلبي غير مُرتاح يا شريف لذلك الشيخ، أخشى منه على الولد!
كان شريف يدخن النرجيلة، وزوجته تُكْرَس له فوقها قطع
الفحم المُتقدة:

- إنه بركة يا حمقاء؟

- لقد خِفْتُ من نظراته للولد!

نفث شريف عمود دُخان، وأشار لها أن تجلس بجواره على الدكة:
- تلك النظرات التي رأيتها؛ ربما ليست نظراته، غالباً هي نظرات
ملوك الجان المؤمنين الذين يساعدونه في شفاء الناس.

تبلبت الزوجة، وأخذت تتعوّذ مُرتعدة.

في إحدى الصباحات، بعد مرور أسبوع؛ تلاًلأت الشمس من خلف
أكمة النخيل. من موضعه خلف قصعة الزيت؛ رأى الشيخُ الصبيَّ
«سالم» تمسكه أمه من يده، وتدخل به إلى الوحدة الصحيّة، فابتسم
له، ولكن أمه سحبته مهرولة إلى داخل الوحدة، فتفلّت منها الصبي،
وركض إلى الشيخ؛ سلّم عليه، فسأله الشيخ:

- كيف حالك ياسالم اليوم؟

نظر الصبي إلى الفلافل الساخنة، والتمعت عيناه، فضحك
الشيخ، وأمسك برغيف، وضع به قرصي فلافل وأعطاه له، أخذها
الصبي، وابتعد فرحاً مردداً:

- الحمد لله، يا جدي الأحمر؛ أنا ذاهب مع أمي؛ هي المريضة
لستُ أنا.

ضحك الشيخ، ثم عاد لينهمك في عمله.

في صباح هادئ؛ انطلق نداءً من الجامع الكبير: «يا أهالي القرية

الكِرام، سالم ولد شريف تايه من ليلة البارح؛ اللي يلاقيه يوديه لبيت
أبوه شريف ولد سالم وتبقون ماقصّرتم...» تردد النداء بين جنبات
القرية، لتضرب العجايز كفاً بكف، ويممصن شفاتهن، وتجري
العيال بين ديار القرية وخراباتها باحثين عن الصبي.

أمه وأبوه صارا كالمجنونين، تائهين بين شوارع القرية وأزقتها
يسألان حتى أشجار النبق والنخيل، حتى الكلاب الضالة، والبؤس
والدهشة يعسكران بوجهيهما.

في هذا الصباح؛ رأى بعض أهل القرية الشيخ الأحمر يرحل فجأة،
وقد زادت أجولته الضعف؛ ثقلت فوق العربة، وكأنها ملئت معادناً
وأحجاراً. وبعد رحيله أفاق الجميع متسائلين في جلسات سمرهم
الليلية وحلقاتهم حول النار عن كنهه، وكيف قبلوه بينهم دون معرفة
أي شيء عنه!

بعد رحيله، لم يكن يتجرأ أحداً من أهل القرية على العبور من
أمام دار الشيخ المهجورة. في هويد الليل؛ كانت تُسمع صرخات طفل
مُزلزلة، ترعب أعتى الرجال شجاعة!

بعد مرو شهرين؛ كان شريف يجلس أمام بيته بين جمع من
الرجال حزيناً شاردًا. لقد حكى لهم عن حكايته هو وابنه مع الشيخ
الأحمر، وحكى لكل من قابله، عساه أن يجد في عيونهم ثمة أمل.
عرفت القرية بأكملها، وسيطر عليهم القلق، واعتقد الجميع بأن
وراء ذلك الشيخ سرّاً ما!

في حلقتهم حول النار، أمام دار شريف؛ هب رجلا من بينهم مردداً:
- لنذهب إلى داره ونبحث به عن أي شيء؛ لا بد أنه ساحر، وربما
قد اختطف الصبي ليمارس به سحره؟

قال آخر:

- لا تخشوا شيئاً؛ نحن رجال كثير وعلى قلب رجل واحد ،
والعفاريت تخشى جمعة الرجال المألفة!

كانت الأم بالداخل منزوية بأحد أركان البيت مُنكمشة على نفسها. يتسرب إليها بصيص نور من النار بالخارج من نافذة أعلى الجدار، فتبدو في نعومة الظلام مثل لوحة زيتية باهتة. يتردد في أعماقها ذلك التحذير الذي أفضت به إلى زوجها ليلتئذ، لكنه لم يهتم: «قلبي غير مُرتاح ياسالم لذلك الشيخ، أخشى منه على الولد!» ثم نجوى حائرة تطلب فيها من الإله رأفة بحالها.

لم يكن هناك مُتسع من الوقت؛ صنعوا المشاعل من المفارش والبُسط، وأشعلوها من النار بينهم، وهبوا في جماعة تزيد عن عشرة رجال إلى دار الشيخ المهجورة، وبينهم شريف يمشي مُتخاذلاً. في طريقهم انضم لهم كُثر. لمّا وصلوا الدار، وجدوها مُعتمة، حطّم بعض الرجال الباب ودخلوا، في حين أن شريف تخاذل مُتهالكاً فوق الدكة أمام الدار يرتجف ويغمغم!

كانت الدار من الداخل موحشة، وتعثّر الرجال بأكوام من الرمل والطين اليابس، تقدموا أكثر فوقعوا على حُفرة في باحة الدار قُطرها متراً ونصف المتر، وعمقها لا يصل إلى خمسة أمتار، وكانت الصدمة حينما وجدوا دماءً جافة متناثرة حول الحُفرة وفي قُراها فوق كومة صخور. تفرّق الرجال بمشاعلهم مُتتبعين خطأ من الدماء المُقطّرة إلى إحدى غرفتي الدار، فصاح أحدهم من الغرفة اليُسرى بملء فاه: «لا إله إلا الله!» هرع بقية الرجال إليه، فوجدوه مُتبيساً وبيده المشعال أمام رمح عُرس وسط الغُرفة، في قلب نجمة خُماسية رُسمت بالدماء؛ وأعلى الرُمح؛ كانت رأس الصبي «سالم» المقطوعة مُنغرسه به، ومُلطّخة بالدماء، ومفقوءة عيناه، تسيلان من محجريهما دماء جفت.

لم يجدوا أي شيء غير رأس الصبي وفأس الشيخ ومقطف جلدي.
 خرجوا يلفون الرأس بجلباب أحدهم، وقدّموها إلى شريف قائلين:
 «إنا لله وإنا إليه راجعون». شهق شريف مصعوقاً، وذهل مُغمغماً:
 «كيف خدعنا؛ لقد كان وجهه الوضّاء لا ينم سوى عن خير!»

اعترت شريف حالة اغماء، حاول الرجال إيقاظه، فلم يفق ولكن
 إصبعه الإبهام تحرّك بطريقة عجيبة، وكأن يداً خفية تتحكّم به
 في إشارة إلى الأرض أسفل الرجال، فأفسح الرجال، فوجدوها بُقعة
 الأملاح، نزلوا يحفرون فيها بأيديهم، وما أن أحضر أحدهم فأس
 الشيخ من الداخل إلا وتعثّرت أناملهم بشيء صلب. ولمّا وسّعوا حوله؛
 وجدوها جُثة الصبي، وقد تأكل لحمها من الأملاح، وما تبقى سوى
 هيكلها العظمي!

لفوها في ذات الجلباب، وحملها شريف على ذراعيه باكياً مُتعثّراً
 بذيول جلبابه وحصباء الأرض كلما تقدّم. وتحركت المشاعل
 تخترق الظلام صوب المقابر القريبة لإكرامها.

لم يبرأ «شريف ولد سالم» حتى الآن، صارت كل كلماته جملة
 واحدة، لا يلوك فمه سواها؛ يدور في الطرقات مردداً إياها:

- لقد كان وجهه الوضّاء لا ينم سوى عن خير!...

لقد رحلَ الشيخ الأحمر عن القرية ولم يعد، ومؤكّد لن تطأها
 قدمه ثانية.



آلام آدم

بأنامله الضخمة الجعدة المدببة؛ راح يداعب خصيلات شاربه
البيضاء المتهدلة على شفته العليا شاردًا؛ يزيجهن يمينًا تارة،
ويعيدهن يسارًا تارة أُخرى، جالسًا بشُرْفَةِ بيته الواسعة الهادئة.

الرجل؛ خلقت له حواء من جسده، من لحمه ودمه، وصار هناك
خيط حنين فطري وغريزي يربط بعضهما بالآخر، يجذب بعضهما
للآخر، دائمًا يبحثان عن بعضهما البعض؛ يبحث الرجل عن نصفه
المفقود، يخصص بقلبه ركنًا لتلك الأنثى التي ستسكنه، يؤجل
البتسامة خاصة للقائنها؛ ابتسامة لا يبتسمها لغيرها، وحضن يشعر
وهي به أنه اكتمل.

والمرأة تظل تبحث عن منبتها، تبحث عن تلك الروح التي انفصلت
عنها قديمًا، تبحث عن ذلك الحضن الذي يعيدها حيث خلقت.

لم يخطيء مذما يربو عن عشرين سنة حينما ابتسم لها تلك
الابتسامة التي كان يُعَيِّنُها لمن ستُكمله، شعر بأنها هي التي
ستتصهر في حضنه وتندمج بجسمه ليصبح آدم جديد، وليشكلا
سويًا مادة الوجود الأولى، وكلما انفكت عنه أصبحت حواء جديدة؛
أصبحت ونيسه الجديد القديم.

لم يُصدق نفسه؛ سارع بخطبتها، ومع الأيام وجد فيها كل
ما يبحث عنه، ليس فقط عيناها الواسعتين العسليتين، ولا أنفها
المنسدل برقة من بين عينيها، ولا شفثيها الممتلئتين الحمراوتين،
ولا حتى بشرتها البيضاء، أو قوامها الممشوق، أو قامتها المتوسطة،
ولا صوتها الذي كانت كلما تحدثت يشعر بأنه وحيًا من السماء، لا

يَمُت إلى الأرض بصلّة، يَأْتِي من كل صوب واتجاه؛ ناعماً، رقرقاً،
نعماً لم يُعزف من قبل، ولن يُعزف من بعد، بل كل ذلك وأكثر جعله
يشعر بأنه في حُلْم، لا يريد الإفاقه منه أبداً.

تعلق بها تعلقاً فطرياً، لم يعد يعرف من صنف النساء سواها،
ناسِكًا وهي محرابه المُقدّس، عابداً وهي معبودته المُنزّهة، وهالة
من القداسة والنورانية لا تُفارقها في واقعه وخياله.

- نتزوج، وكفى خطوبة إلى هذا الحد؟

كانا جالسين على مقعدين على شاطيء النيل عند الغروب، ومن
حولهما العشاق كالفراش المبعوث؛ ابتسمت، قالت بصوتها الرقراق:
- موافقة؛ نتزوج.

ومرّت الأعوام على زواجهما، وأثمرت عن ثلاثة أطفال؛ ولدان
وفتاة، كانوا له مثل أمهم؛ مخلوقات ملائكية مُنزّهة، كان أسعد
البشر، بل لم يكن بشر؛ كان يشعر بأن هالة قدسيته طالته،
وأصابه بصيص من نورانيتها.

بحث كثيراً في تقاسيم أطفاله، مقق بصره ودقق؛ لم يعثر لنفسه
عن ملمح واحد، سوى لون عيونهم السوداء، وتشابه أنوفهم الصغيرة
بأنفه؛ بشرتهم بيضاء، مثل أمهم حتماً، لكن بشرته هو قمحية،
لم لم يجد بينهم بشرة واحدة تُشبهه؟ مؤكداً هي الهالة النورانية
المُقدّسة التي طُعّت على قوانين الطبيعة والوراثة، فأفرزت مخلوقات
ملائكية لا تُشبهه بل تُشبهه معبودته المُنزّهة فحسب.

يعود من عمله، لا يجدها بالبيت، لا يعلق، فهي حُرّة، هكذا
اتفقا قديماً؛ تخرج أنى شاءت، وتؤوب أنى شاءت، وهل يحجر العابد
على معبوده، في أي شريعة ذلك؟! المعبود المُنزّه لا يُسأل عمّا يفعل،
والعباد يُسألون.

لَمَّا تَعُودُ كَانَتْ تَدْفِنُهُ بِحُضْنِهَا ، فَيُخْشَعُ عَلَى صَدْرِهَا ، وَيَغْمِغُمُ بِتِرَاتِيلِ الْحُبِّ ، وَيَلِجُ جَنَّةَ الْخُلْدِ ، الَّتِي لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا بِشُرُوقِ الشَّمْسِ .
بَعْدَ مَرُورِ السَّنِينَ ، وَتِرَاكُمِ الْخَبْرَةِ فِي الْحُبِّ ؛ يَجْلِسَانُ بِالشَّرْفَةِ صَبَاحًا ، وَعَصَافِيرُ حَدِيقَةِ الْبَيْتِ تَشْدُو بِتِرَانِيمِ الصَّبَاحِ ، تَقُولُ لَهُ شَارِدَةٌ :

- أَخِيرًا سَيَتَزَوَّجُ الْأَوْلَادُ ؟

يَجِيبُهَا سَارِحًا :

- لَقَدْ كَبُرَ الْأَوْلَادُ ، وَلَكِنَّا لَمْ نَكْبُرْ بَعْدَ ، أَنْتِ كَمَا أَنْتِ مَعْبُودَتِي وَمَحْبُوبَتِي ، وَبِنَفْسِ هَالَتِكَ النُّورَانِيَةِ الْمُقَدَّسَةِ ، بَلْ أَزْدَدْتِ قِدَاسَةً وَجَمَالًا ، وَأَنَا لَمْ يَكْبُرْ فِي شَيْءٍ سِوَى حُبِّي لِكَ ، هُوَ فِي حَالَةِ أَزْدِيَادٍ مُطَّرِدٍ مَعَ أَزْدِيَادِ السَّنِينَ .

تَزَوَّجَتِ الْفَتَاةُ ، وَتَزَوَّجَا الْوَلَدَانِ ، وَعَادَا لَوْحَدَهُمَا ؛ آدَمُ وَحَوَاءُ ؛ مَادَةَ الْوُجُودِ الْأُولَى . الرُّوحُ الَّتِي انْقَسَمَتْ قَدِيمًا ، لَمْ تَكْبُرْ وَلَمْ تَهْرَمْ ، مَا كَبُرَ وَهْرَمَ فَقَطْ الْأَجْسَادُ ؛ الرُّوحُ تَظَلُّ شَابَةً نَضْرَةً مَهْمَا تَقَدَّمَتْ الْأَجْسَادُ فِي السَّنِينَ ، تَظَلُّ تَحْمَلُ بَيْنَ طَيَاتِهَا كُلَّ خَصَائِصِهَا الْفَطْرِيَّةِ وَالْمُكْتَسِبَةِ مِنْ حُبِّ وَإِيمَانٍ ، وَشَرِّ وَخَيْرٍ .

مَعَ مَرُورِ السَّنِينَ ؛ ظَلَّتْ رُوحَهُ حَامِلَةً بَيْنَ جَنَابَاتِهَا الْحُبِّ وَالْقِدَاسَةِ لِمَعْبُودَتِهِ ، حَتَّى مَعَ تَكَالِبِ التَّجَاعِيدِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَلَائِكِيِّ ، كَانَ يَشْعُرُ بِقِدَاسِيَّةِ أَطْفَى ، بِعِظْمَةِ أَكْثَرِ ، وَمَعَ انْتِشَارِ الشَّيْبِ فِي شَعْرِهَا الْأَسْوَدِ الْحَرِيرِيِّ ، كَانَ يَشْعُرُ بِهَيْبَةِ أَكْبَرِ ، وَنُورَانِيَّةِ أَعْمَقِ ، وَكَانَ أَمَامَ كُلِّ ذَلِكَ لَا يَسْعَهُ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ إِيْمَانَهُ بِشَبَابِ الْأَرْوَاحِ دَوْمًا أَمَامَ نَاطِرِيهِ ؛ يَقِينًا وَعَمَلًا .

مُؤَخَّرًا ؛ حَدِثَ لَهُ شَيْءٌ غَرِيبٌ ، مَجْرَدُ مَزَاحٍ كَادَ أَنْ يَزْحَزِحَ يَقِينَهُ بِمَعْبُودَتِهِ ، وَلَكِنَ إِيْمَانَهُ كَانَ أَقْوَى مِنْ أَيِّ دَلِيلٍ ، وَمِنْ أَيِّ حَقِيقَةٍ أَوْ مَزَاحٍ ؛ صَدِيقٌ لَهُ يَعْمَلُ طَبِيبًا ؛ قَالَ لَهُ مِمَّا زَحًا :

- لقد كبرت ولم تعد بك عافية لمواقعة النساء، وحتى إن واقعت
إحداهن فلن تُتجب أبداً؟

جُن جنونه آنذاك، وقرر أن يتحدى صديقه الطبيب، لايدري
لماذا، عندئذ؛ قرر الطبيب عمل تحاليل له، لمعرفة قدرته على
الإنجاب، وخرجت النتيجة.

- عقيم!

كانت النتيجة! لم يُصدق!

كيف يكون عقيماً ولديه من الأولاد ثلاثاً؟!؟

وكيف يحاول هذا الطبيب مُجرد المحاولة في التفكير بالمساس
بنورانية معبودته، زوجته المُقدّسة، شريكة حياته، عشرة العمر؟
- مؤكداً هناك خطأ بأجهزة التحاليل، أو أن هذا العُقم حدث مؤخراً!

كان رده على صديقه...

- ربما يا صديقي!

كره صديقه، قطع صداقته به؛ هو لا يريد شيطاناً يزعزع
إيمانه، ولا يريد الضلال بعد الهداية، لا يريد الخروج من الجنة، لا
يريد هجران محرابها، هو لا يريد أن يُقذف في جحيمها، إنما يريد
نورانيتها، وقدسيتها... وكفى.



يفيق عند دخول معبودته الشرفة، ويكف عن مداعبة خصيلاته
شاربه. دخلت ممسكة بفنجانين من القهوة، وضعت أحدهما أمامه،
ووضعت الأخر أمامها، ثم قعدت في هدوء.

رمقها بنظرة إجلال، لا تشوبها سائبة، ابتسمت له، صمتت، عاد
لشروده، تناولت فنجانها، ارتشفت منه رشفة، حدجته، قالت:

- فيم أنت شارد؟

- لا شيء سوى الذكرى الطاهرة.

عادت لصمتها، وفجأة؛ تكذّرت ملامحها، وأزبد وجهها، ونظرت له، لاحظ تغيرها، تأملها مُتعباً، قالت حانقة:

- أريد أن أخبرك سرّاً هاماً لا أطيق كتمانها بداخلي أكثر من ذلك؟

انقبض قلبه، ارتعد كل شيء به، تصبب عرقاً، شعر بأنه يهوي في بئر سحيق مُظلم؛ ملؤه الندوات الصخرية الحادة التي تسحج روحه. تذكر صديقه الطبيب، تذكر التحاليل الكاذبة، تذكر همزات الشيطان، تذكر الضلالة بعد الهدى. هل حان وقت الخروج من الجنة؟ هل ستتقشع الهالة النورانية عن لا شيء؟ هل سيعيد آدم وحيداً بلا ونس؟ هل ستفسد مادة الوجود الأولى؟

بدأت دموعها في الانهمار بغزارة؛ كانت أول مرة يراها تبكي. المعبودة ضعيفة، المُنرّهة تتحب؛ فماذا عساه أن يفعل وهو العابد؟ شعر بثقل يجثم على كل عُمره، يجثم على كل ذكرياته معها، يجثم على روحه، بل يقتلع روحه اقتلاعاً بلا أي رحمة.

قرر: لا بد من إيقافها، لا بد من إسكاتها، لا بد لها من التزام هالتها النورانية المُقدّسة. لا بد أن يظل ناسكاً في محرابها حتى آخر لحظة في عمره؛ لن يترك جنتها أبداً... ولا بد من إيقاف اقتلاع روحه! ازدرد ريقه، قال بصوت خرج مُرتجفاً:

- لا أريد الاطلاع على أي أسرار.

ثم قال في نفسه: ليس للعابد أدنى حق في معرفة سر من مكنون أسرار معبودته!

ثم عاد لشروده من جديد.



باب الجنة

بَدَّتْ السماء متسخة بغيوم سوداء داكنة؛ تحوم بخلجاتها الطيور الجارحة مصدرة صرخات يتردد صداها في أعماق قلبه.

على الأرض؛ ينتصب هو؛ شاب بدا في عقده الرابع من العمر؛ ذا بشرة سمراء باهتة، وعينان ذابلتان داميتان، وتقاسيم شاحبة، وقامة طويلة هزيلة البنيان؛ يسيل من فاه اللعاب كطفل رضيع، مثبت إلى عامود خرساني لا يتعدى المترين، موثق من حول خصره وصدره بالحبال؛ متوحداً مع العامود في ثباته؛ رَحْوُ الرقبة مطرق الرأس، عارِ الجسم إلا من خرقة قماش تستر عورته، مبتور الذراع الأيمن؛ وما يزال جرحه يقطر دمًا، ومسجاة غير بعيد عنه ذراعه المبتورة.

بدا المكان من حوله ساحة مجدورة بأشلاء البشر المضرجة بالدماء؛ تحوم من فوقها الطيور الجارحة؛ تهبط من فينة لأخرى؛ تخطف نسيلة لحم، ومن ثم تحلق بها لتأكلها بعيداً؛ وسط أطلال قرية كانت أكواخاً وتهدمت.

رفع الشاب بصره بتؤدة، حطت نظراته فوق جثتين محترقتين لتوهما؛ تتصاعد منهما ألسنة الدخان بوهن.

بنظرات ضعيفة حانية راح يتأملهما، فانتابت الرجفة فكه الأسفل، وتسارعت اصطكاكات أسنانه، وبعد لحظات؛ سألت دموعه بتأنٍ. بدا أنه يعرفهم جيداً؛ أطرق رأسه؛ أغمض عيناه؛ دبَّت فيهما الحياة من جديد، ولكن في مخيلته فقط!



قبل ساعة؛ كان في نفس موضعه؛ سليم الجسم؛ يتحلقه رهط من شباب سمر الوجوه، طوال القامة، يتزيون بزّي شرطي، ويمسكون بالخناجر، وبأحزمتهم مسدسات راقدة في أعمادها.

اقترب نحيب امرأة وبكاء طفل من خلف الأكواخ المهدامة.

- أبي... ماذا فعلوا بك؟

قالها ثم ظهر من بعيد طفل مهلهل الثياب؛ في العاشرة من عمره، أسمر البشرة، شاحب الوجه، وبجانبه أمه؛ سمراء الوجه، دامية العينين، ربعة القامة، ممزقة الثياب، مكشوفة الثديين، ويستاقهم ثلاثة رجال مسلحين ومزدانين بالزّي الشرطي.

وقفت المرأة أمام زوجها مطأطئة الرأس؛ تتحب وتكفكف دمعاتها في صمت، وهرول الطفل واحتضن ساقى أبيه وتشبث بهما، وانفجر بالبكاء.

وقف رجال الشرطة يتفرجون بشغف، قال الطفل لأبيه بصوت

متهدج:

- ماذا سيفعلون بنا يا أبي؟

أزبّد وجه الأب، وتكدّرت قسماته. بماذا يُجيب على الصغير؟ أيقول له الحقيقة؟ أم يكذب عليه؟ وإن كذب عليه؛ فسيكتشفها حتمًا بنفسه بعد قليل!

- سيقتلوننا!

قالها الأب، ثم ازدرد ريقه، وزاغت عيناه!

- لا يا أبي لا أريد الموت!

صرخ بها الطفل خائفًا مرعوبًا، فقال له أبيه:

- سأموت أنا وأمك ونتركك... قاطعه الطفل ممتعضًا:

- لا أريد العيش لوحدي!

ابتسم رجال الشرطة المتفرجون، وتغامزوا فيما بينهم، قال الأب بصوت متهدج ووجه مُرتجف:

- إذا تعال معنا إلى الجنة وأشجارها العالية، وخمائلها الخضراء، وأنهارها الرقراقة، وطعامها الذي لا ينقطع؛ ستأكل اللحوم والفاكهة التي لم ترها منذ ولادتك وأي طعام تشتهييه تجده أمامك في لمح البصر. تعال حيث لا شمس ولا نار، ولا عمل ولا شقاء؛ ستلهوا مع أطفال الجنة، وستكبر هناك ولن تموت ثانية أبداً، وستتزوج من الحور العين وهن فتيات أجمل من فتيات الدنيا بكثير، وسنعيش في قصور منيفة؛ تطل على أجمل الأنهار؟

كان الطفل صامتاً شاردًا مشدوهاً جاحظ العينان، مُنبهراً ومُتعباً من وصف تلك الجنة، لحظات وأفاق من شروده، وسأل بصوت رقيق مُطمئن:

- حقاً يا أبي؟

- حقاً يا ولدي.

ابتسم الطفل، قال:

- أريد الذهاب إلى الجنة الآن يا أبي؟

لاحت ابتسامة واهنة من خلف دموع الأب وقال:

- إذا ما أردت الجنة فلا تخش الموت أبداً؟

صاح أحد رجال الشرطة:

- هل أنهيتم حفلة الوداع؟

صاح ثان:

- لقد انتهوا تقريباً!

صاح ثالث:

- خذوا الطفل واحرقوه أمام والديه لتُحرق قلوبهم؟

أضاف شرطي رابع:

- احرقوهم جميعاً لا نريدكم في بلادنا هؤلاء الحمقى؟

جذباً شرطيان الطفل المتشبث بساقي أبيه من قبة ثيابه؛ لم يقاوم الطفل ولم يظهر عليه الخوف وبدا صامتاً شاردًا مُنْساقًا لأيديهم.

وقفوا به على بعد أمتار منهم، وكان ظهره إلى الجميع؛ وشاخصة أبصار والديه إليه؛ والدموع لا تتوقف، والرعشات تزداد، والأنين مكتوم ثم مسموع.

اقترب منه أحد رجال الشرطة؛ سَكَبَ على رأسه النفط من قارورة كبيرة؛ بدا الطفل مستمتعاً بسكب النفط فوق جسده؛ مهقهاً وكأنه يستحم بماء بارد حتى ابتلت سائر ثيابه وشفت عن جسمه النحيل!

اقترب منه أحد رجال الشرطة، ممسكاً بيده مشعال متقد، وفجأة؛ التفت الطفل خلفه حيث رست نظراته على والديه، ضحك بصوت عال؛ فزع رجل الشرطة الممسك بالمشعال؛ تعجب من حال الطفل؛ عاود الطفل النظر إلى الأمام؛ صرخ، أشار بيده مشدوهاً إلى الأمام، زعق منبهراً:

- باب الجنة!

همَّ بالركض ليدخل ذلك الباب الذي رآه هو فقط؛ اقترب الشرطي بمشعاله؛ أضرم به النار؛ لم يشعر الطفل بأنه يحترق؛ راح يركض مبتسماً، بعد ثوان؛ توقف مشتعلاً، التفت خلفه حيث والديه، وصاح بصوت جهور:

- والداي؛ سأنتظركما هناك بالجنة الكبيرة، لا تتأخران عليّ أرجوكم؟

ثم عاد ببصره صوب باب الجنة، وسط ضحكات رجال الشرطة

وقهقتهاهم، وهَمَّ أن يركض لولوجه؛ فسقط على الأرض متفحماً.
سقطت رأس الأب على صدره، وتدفقت الدموع تعرف طريقها إلى
الأرض. تحركت الأم وجمة متجهمة. اتجهت لمن يسكب النفط،
أمرته:

- أسكب؟

سكبَ عليها؛ اقتربت ممن يشعل النار، أمرته:

- اشعل؟

أضرم بها النار؛ نظرت لزوجها وألسنة اللهب تلتهم ثيابها ثم جلدها
قائلة:

- سألحق به... لا تتأخر علينا؟

عض أحد رجال الشرطة شفته السفلى ثم قال:

- لقد كانت ممتعة جداً لَمَّا تناوبنا جميعاً على اغتصابها؛ لا تزال
تأوهاتنا تتردد بأذناي!

دلفت الزوجة تجاه جثة طفلها المتفحمة متناقلة الخطى، وحسيس
النار يملأ الأذان، ورائحة اللحم المحترق تغط بالأنوف، والأب؛
أُصيبت الحياة من حوله ببطاء السلحفاة؛ شخص بصره صوبها، والنار
بحدقتيه تلتهمها؛ ماذا عساه أن يفعل؟ حلتُ ساعتها، أقلها لن يُظلم
بعد الآن، وليطمئن أنهما عند الله سيكونان بخير.

فجأة؛ سقطت متفحمة بجانب جثة طفلها، وعادت الحياة لسرعتها
من جديد.

اقترب أحد رجال الشرطة من الأب، استل سيفه، بتر ذراعه
اليمنى، ثم أعاد السيف لغمده، وتركوه مقهقهين وفرحين بانجاز
عملهم.



فجأة: سمع الأب هزيم الرعد؛ أفاق من شروده، برقت السماء، ومايزل جاحظ العينين إلى رفاة أحبائه الذين رحلوا وتركوه وحيداً! أمطرت السماء بغزارة؛ راحت دمعاته تسيل معها؛ ظهر غير بعيد رهط من رجال الشرطة مقتربين منه؛ يمسكون بأيديهم مظلات تقيهم زخات المطر، وصلوا إليه، قال أحدهم:

- لو أضرمنا به النار لانطفأت بفعل المطر!

أضاف ثاني:

- نذبحه ونحتفل بانتهاء سكان هذه القرية؟

أضاف غيره:

- نسلخه حياً، حتى يموت من نشوة الألم؛ «الروهينجيا» هنا يحبون ذلك ويستحقونه؟

أضاف رابع:

- نطلق عليه النار!

كان الأب تائهاً بين آرائهم، غير آبه لطريقة الموت التي يتفكرون له فيها؛ الموت هو الموت أيًا كانت أسبابه؛ يظنونه عقاباً له، ولكنه يعرف أنه رحمة، وبداية لولوج حياة حقيقية، والأهم أنه سيذهب إلى أسرته: مؤكد أنهم ينتظرونه بشغف. صرخ برجال الشرطة حانقاً:

- لا أريد الموت بسهولة؟

انفجرت الضحكات من أفواه رجال الشرطة، قال أحدهم:

- لقد قلت لكم أن «الروهينجيا» يحبون ذلك.

انفجروا ضاحكين؛ أطرق رأسه، أخرجوا مسدساتهم؛ قاموا بتعميرها، فكوا وثاقه؛ وقع أرضاً، قال له أحدهم:

- تحرك صوب أسرتك؟

جثا لاهثاً على الأرض المجدورة ببرك الدماء والأشلاء، نظر
لذراعه المسجاة غير بعيد نظرة وداع: مؤكداً أن هناك لقاء فيما بعد.
حاول أن يقف؛ فعلها، دلف صوب أسرته المتفحمة، فجأة؛ أُطلق
عليه الرصاص، فاخرقت الرصاصات جسده. توقف إطلاق الرصاص؛
سقط على ركبتيه وكفه بجوار أسرته؛ حاول أن يتماسك، طُفر
فمه دمًا، اختلطت مياه الأمطار بدمائه ودموعه النازفة. اقترب منه
أحد رجال الشرطة مستلاً سيفه، وقف يشاهده مبتسمًا.

نظر الأب إلى الأمام؛ حمله؛ رفع رأسه؛ انتصب على ركبتيه:

- إنه هو!

تمتم بها مشدوهاً، ثم صرخ:

- لقد رأيتُه؛ باب الجنة! رأيتُ باب...

فجأة؛ فُصلَ رأسه عن جسده؛ تدحرج أرضاً؛ خرت جثته محلها
بجوار أسرته.

وقف رجل الشرطة فوق الجثة مبتسمًا؛ ممسكًا بسيفه الممزرع
بدماء الشاب؛ حدّجه زملائه، قال ساخرًا ووجهه يقطر ماءً:

- فقط أعطيته فرصة ليدخل باب جنته سريعاً!



الفهرس

إهداء.....	٥
أنشودة الموت.....	٩
كائن لا يَحْتَمِلُ ثِقْلَهُ.....	١٤
موسم الخطيئة.....	٢٠
العائدون ليلاً.....	٢٧
زمهرير.....	٣٢
الساخِطان.....	٤٢
مسارب اللاوعي.....	٤٧
اللحم والمش.....	٥١
الخِضِر.....	٦٠
شيماء.....	٦٥
الشفق الدامي.....	٧١
المُغْفَل.....	٧٦
إيمان.....	٨١
إيمان ٢.....	٩٦
مشهد ساخن.....	١٠٢
لذة السقوط.....	١٠٦

- ١١١سراب أغسطس
- ١٢١قُرْبَان
- ١٢٩آلام آدم
- ١٣٤باب الجنة